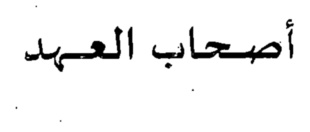
رواية

أصحاب العهد

محمد أمير

دار اكتب

٢٣٧٨٦٥


أصحاب العهد

أصحاب العهد

محمد أمير

الطبعة الأولى ، القاهرة 2017م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد المصري

رقم الإيداع : 27999 /2016

I.S.B.N: 978-977-488-505-1

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01144552557 – 01147633268

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

أصحاب العهد

رواية

محمد أمير



دار اكتب للنشر والتوزيع



"إنني أبدو مثل طفلٍ يلعبُ في ساحل البحر، ويجدُ من وقتٍ لآخر حصاة ملساء أو قوقعة جميلة، أجمل من مثيلاتها، إلا أن الحقيقة كلها تمتدُّ أمامي مثل مُحيطٍ واسع عظيم لم أكتشف منهُ أي شيء بعد".

***

الحقيقة..

بهذه الكلمات أنهى السير إسحاق نيوتن حياته، وبهذه الكلمات نبدأ معًا، لربما كانت هذه الكلمات جارحة للبعض، وربما كانت درس يتعلّم منه الأذكياء، ولكن لنكن متفقين أننا سنقاتل معًا.

مَن سنقاتل؟ وما الذي نواجه؟ أسئلة ليس لها إجابة الآن، ولكن بعد سطورٍ سنجد لها أكثر من إجابة.



أين نحن؟ ما الذي حدث؟ لا أعرف، نحن كرضيعين نرى بعين زجاجية ما يدور حولنا، ولكن لا نفهمه، لا نعرف أين ولدنا ولا لماذا يبكي من حولنا، نحاول جاهدين بلا أدنى استجابة، تجحظ عيوننا اتساعًا فلا نرى الصورة كاملة، نصارع كيانات وهمية لا يراها سوانا، ولكن بداخلنا نوقن أننا لن نصل إلى شيء إلا حين نستوعب هذه الترهات.

أو ربما كبعض البراعم تنهض من بين الثرى فترى الشمس لأول مرة، ولكن كيف يوقنون أنهم ينبتون وسط حرب عرقية وأمطار الدماء تقطر على وريقاهم الصغيرة؟!

يبكي أو يتباكى البعض على ما فقدوه وقت خنوعٍ أو ضعف، فلا المفقود يرجع ولا يُستعاد، إنما بالقوة كما تعلّمنا من أجدادنا.

النفس البشرية معقّدة فعلًا، سراديبها أكثر من أنفاق غزة أو ينابيع إسكتلندا، متاهة كالتي يقبع فيها المينوتور، الفرار منها مستحيل لأنك ببساطة لا تستوعب مداخلها ومخارجها.

حسنًا، بداخل الكهف قد نجد الإجابة إذا ما استوعبنا الدرس جيدًا، فلنتماسك إذن ولنعبر معًا، فربما تعلّمنا الدرس باكرًا.

الدكتورة ليلى الشمري

ويلي من آلام الرأس، يكاد مما تدور به من أفكار أن تنفجر، لا أشعر بالراحة هنا حيث إن الظلام حالك، إذا كنت هنا فأنا لا أراك كلية، حقيقة لا أرى خارج دائرة الضوء حول هذه الأوراق، لا أكاد أشعر بالأجواء حولي، وقد فقدتُ فعليًا الإحساس بالزمن، كما أنهم الآن يسعون ورائي، أين أنا؟ وكيف وصلتُ إلى هنا؟ أسئلةٍ لن تفيد بشيء، ربما ستفيد من يهتم بمعرفة قصتنا كاملة، ولكن الآن لا تفيد بشيء، مجرد سطور، كلمات عابرة أحاول فيها أن أعبّر بها عمَّا مررتُ وسأمر به عمَّا قريب.

حسنًا، هذه أول أوراق غير علمية أو تاريخية أكتب فيها؛ لهذا لا أعرف كيف أبدأ، وكيف أسرد قصّتنا، ولكني سوف أحاول أن أقّص عليكم كل حرف مررت به.

عثورك على هذه الأوراق دليل على أننا قد هلكنا، وأن هذه الأوراق تعانق جثتي الآن، وهذا يجعل من كتابتي لهذه الحروف كمن يكتب وصيته قبل وفاته.

لا، ليست قصاصات مرعبة بقدر ما بها من آلام نفسية وجسدية تفوق احتمال البشر.

وليكن الله في عوني حتى أنتهي من هذه الأوراق.

لماذا أكتب مذكراتي؟ وبماذا أمر الآن؟ وأين عثرت على أوراق وأقلام؟

ستعرفون مع الوقت.

لربما تتساءل من أنا؟

أظن أنك قد سمعت عن رحلة "إنقاذ آثار بابل" التي تتبناها لجان حقوق الإنسان

ههههه حقوق الإنسان، أين أجدهم الآن؟

أظن أن المدير التنفيذي "القلق دائمًا" يجلس على أريكته يتناول المأكولات البحرية في تلذُّذ وهو يُداعب قِطَّه السمين، ويحاول أن يدرّب نفسه على نظرة عين قلقة ليقابل بها الصحافة والإعلام.

فأمامه هو وبعض المسئولين الكثير من "الشجب" و"الإدانة" التي لا تفيد إلا في المواقع الإخبارية والدعاية فقط، ولكن هيهات.

لا يرانا ولا يشعر بنا إلا خالقنا سبحانه وتعالي، الله الذي يرزق الدود في باطن الحجر، والبعوضة وما فوقها جلّ وعلا، هو فقط من يتطلع إلينا وينظر لنا بعين الرحمة، رُحماك يا ربي.

من أنا؟

حسنًا سأقول.. أنا الدكتورة "ليلى السيد الشمري"، مصرية الجنسية من أم فلسطينية، تجاوزت العقد الثالث ولستُ بمتزوجة.

كنت.. نعم كنتُ، فأنا سأكون جثة هامدة قريبًا ربما يومان على أكثر التقدير، كنت أستاذة جامعية مرموقة، أدرّس علوم التاريخ والآثار بجامعة كامبريدج في بريطانيا، وكنت عضوًا في منظمة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة، أُقيم في لندن بإنجلترا للتدريس والعمل، وأهلي في مصر، لا أعرف عنهم شيئًا أبدًا.

فأبي قد تُوفّيَ منذ عقودٍ ومعه أمي في حادث طائرة، وليس لي منهم إخوة، وقد انشغلتُ بالدراسة فلا زوج لي ولا طفل.

حسنًا، تعرفونني جيدًا الآن، كيف بدأ كل شيء؟ أو كيف سأبدأ؟

بدأ كل شيء منذ عام تقريبًا، وسأسرد لكم كل تفصيلة وكل حوار مررتُ به.

العام هو 2015 هذا العام المجنون، على ما أتذكّر فهذا العام الذي بدأ بمجزرة بوكوحرام في باغا، والهجوم على شارلي إيبدو، ثم

إعدام معاذ الكساسبة حرقًا، وهجوم سوسة بتونس، ثم تفجيرات بانكوك، والطفل السوري الغريق رحمة الله؟ والطائرة الروسية في سيناء وتفجيرات أركان في تركيا؟؟ حتى زلزال نيبال وانتهاء بهجوم باريس.

عام كامل من التفجيرات والكوارث تسبب فيها من لا يفقه في دينه ويفتي، جماعة من المرتزقة ينتشرون تحت راية الجهاد في جميع أنحاء العالم، يهددونا بالسلاح ويأمرون بالدين، وهم أبعد ما يكونون عنه، أو هكذا أظنُّ، ربما يكونون على حقٍّ، ولكن، في الحقيقة هم السبب فيما نحن فيه الآن.

لربما اتهمني قارئ الأوراق بالعنصرية تجاه فصيل معين، وهو ما لا يكون مقبولًا من عالمة حاملة للدكتوراه وتعمل في دولة غير عربية، أقول إن هذا الفصيل بالذات كان السبب فيما آلت إليه الأحداث.

إذا أمدَّ الله في عمري ستعرفون تفاصيل كل شيء، حسنًا، كان يومًا هادئًا وقتها حسبما أتذكّر، فقد كان النهار صيفًا، والصيف في لندن بارد قليلًا يعطيك نكهة محببةً للاستمرار في الحياة، الصباح الضبابي ورائحة الشاي المميزة، يقال إنك إذا أصابك الاكتئاب يكفي أن تجلس في مثل هذه الأجواء لتتأمل، وقتها فقد سيزول اكتئابك، ولربما زالت همومك ومشكلاتك أيضًا.

إن لندن هي مزيج من المدينة الأثرية الضخمة التي تعجُّ بكل ما هو أرستقراطي، وفي ذاك الوقت قامة في التحضُّر والرقي، بعكس باقي دول بريطانيا العظمى، فويلز مثلًا تتمتع بجو من الأيرلندية لو كان لها وصف، وإسكتلندا العريقة التي كانت ذات يوم تثور على بريطانيا العظمى، وهي الآن قد صوَّتت بتبعيتها لإنجلترا، هي قصص متشعّبة لن تفيد بشيء الآن.

المهم، كنت قد فرغتُ لتوِّي من محاضرة عن الحضارة الآشورية وتأثير مبدأ الإله في التراث العراقي القديم، ماذا كانوا يُقدِّسون وماذا كانوا يعبدون، وكنتُ وقتها أحتسي الشاي الساخن المُحبَّب لديَّ، وكنت أُطالِعُ وقتها هذا الخبر المحزن عن تدمير "تنظيم الدولة" لآثار تدمُر في الموصل، كانت صورة في جريدة الإندبندنت البريطانية، حيث يقبع أحد الملتحين على أحد آلهة آشور يدمّره ثم يُكبِّر، كما لو كان قد فتح مكة أو يهدم مناة الثالثة الأخرى، ربما يظن أنه هكذا ينصر الإسلام من الشرك بالله وهو لأمر يثير السخرية، فلا أحد يُقدِّم القرابين لها الآن، آه يا له من هدر للتاريخ!

أهذا هو ما تعلّمناه؟ أهذه هي الرسالة المقدسة؟

قطعت وقتها حبال أفكاري اهتزاز هاتفي الخلوي، طالعتُ الشاشة البارقة لأجد رقمًا غير معروف يزداد إصرارًا على مُكالمتي.

سأسرد لكم من هنا الحوار كاملًا حتى لا تفوتكم فائتة، ولكم الحكم في النهاية:

رفعتُ هاتفي وقررت الردَّ:

- آلو مَن يتحدّث؟

صوت يبدو عليه الأهمية:

- سيدتي الدكتورة ليلى؟

قالها بلهجة بريطانية شديدة الصرامة.

أنا:

- نعم أنا تفضّل.

هو:

- يحادثك الدكتور جورج من مكتب مدير عام منظمة حقوق الإنسان.

أنا:

- أهلًا بك سيدي، تفضّل.

جورج:

- اختصارًا لوقتك سيدتي فإن المنظمة تريد ميعادًا للمقابلة لمناقشة أمرٍ ما معك سيدتي، هل سمحتِ بالمجيء؟

أنا وقد بدأ الشك يُراودني:

– ولأي سبب تريدُني سيدي؟

جورج:

– ستعرفين كل شيء عند وصولك سيدني، سنرسل سيارة لتقلّك عند السابعة من صباح الغد.

أنا بدهشة:

– ألا تحتاجون إلى عنواني لتصل السيارة؟ وكيف استطعتم الوصول إلى رقم هاتفي؟

جورج:

– ستفهمين كل شيء سيدتي، نراك غدًا.

ثم أنهى المكالمة.

ما هذه المكالمة الغريبة؟ ولماذا تحتاجني هذه المنظمة؟ أنا خبيرة آثار ولست نجمة من نجوم المجتمع الإنجليزي.

احتسيتُ قهوتي على عجلٍ وأنا أُفكّر..

لماذا يريدونني؟

***

في تمام الساعة السابعة إلا خمس دقائق صباحًا كنتُ ما زلت أضع بعض مستحضرات التجميل وأُزين شعري، فأنا لا أعرف إلى أين أنا ذاهبة، لربما كان احتفالًا ما، بالطبع أنا أعيش بمفردي، فلا أحد يهتم إلى أين أنا ذاهبة ولا أجد الوجوه القلقة دائمًا تراقبني في شكٍّ وأنا أقسم لهم أنني لا أفقه شيئًا بعد.

بالطبع إذا كانت أمي هنا لكانت قد أخذت أرقام كل من معي في هذا الاجتماع، ورقم جورج بالتحديد، بالرغم من كبر سني لكانت قد فعلت هذا ولا شك، ولكن أنا وحيدة، وهذا بالنسبة لي راحة لكثير من التساؤلات.

كنتُ مُرتابة قليلًا فقلّما احتاجتني منظمة ما في شيء، في الحقيقة لا يهتم لأمري أحدٌ إلا طلّابي في الجامعة، وربما منظفة المنزل، ليس لشيء إلا أجرها، موقف هو جديد كُليًّا على شخصي الهادئ، ولا أدري

كيف أتصرفُ، كنتُ أضعُ المستحضرات كمن تذهب في ميعاد غرامي لأول مرة، نظرتُ لحظةً إلى المرآة ثم ابتسمت.

نعم أنا جميلة عندما أُزيل هذه العوينات الغليظة، وخطوط القلق المستمرة على جبهتي، وأضع المستحضرات الغالية، رشيقة أنا، لو كنتُ اهتممتُ بالزواج لأصبح لديَّ الآن زوج وأطفال و..

قطع ترهاتي وقتها صوت سيارة تدقُّ بوقها في شارعنا الهادئ، نظرتُ إلى ساعة الحائط العريقة فوجدتها السابعة تمامًا، هم دقيقون إذن، يبدو أن الموضوع بالغ الأهمية.

أشرت له أن ينتظر قليلًا، وهاتفت الجامعة حتى يكونوا على دراية بما أنا فيه، أخذتُ مفاتيح منزلي وأغلقتُ الباب واتجهتُ صوب السيارة.

كانت سيارة من النوع فورد موديل السنة، غالية السعر هي، زجاجها قاتم يوحي للناظر أنها بالفعل جهة حكومية خاصة، هل تم تعييني سفيرة لتترانيا وأنا لا أعلم؟ تساءلتُ وقتها:

لماذا كل هذا التكليف خاصة هذا الحارس المتلهف الذي قفز في خطوة جريئة خارج السيارة ليفتح بابها كي أركب؟!

نظرت له وقلتُ:

– لم أكن أعلم أنني بهذه الأهمية البالغة، وماذا بعد، سيارات من النوع جيب للحراسة؟

ابتسمتُ ونظرتُ لوجهه لأرى ردة فعله، فَلم أجد شيئًا، كأنني كنت أنظر إلى صحن فارغ، لم أُعلق ودخلت السيارة في صمتٍ ثم تحركنا.

طوال هذا الطريق كنت قلقة في صمت، أُحاوِلُ تجميع أفكاري التي تتشتت محاولة استيعاب ما أنا ذاهبة إليه، هل سيتم القبض عليَّ مثلًا؟ أم أنني في مهمة حكوميةٍ لتشريح رمسيس الثاني كما فعل الدكتور موريس بوكاي من قبل؟

الحقيقة كنت لا أدري ويا ليتني لم أذهب! لكم أتمنى العودة بالزمن فأرفض هذه المهمة المشئومة من الأساس، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

المهم، وصلت في تمام الثامنة إلا خمس دقائق، ففيما يبدو أن المقر في مقاطعة أخرى، احتاجَ الطريق إلى ساعة كاملة للوصول.

نظرت من نافذة فلم أجد مقر المنظمة المعروف، بل وجدت فيما يشبه المنطقة العسكرية شديدة الحراسة، بالفعل كانت منطقة عسكرية يحاوطها الكثير من الأفراد والعساكر في زيهم المموَّه يُوجِّهون أسلحتهم في شغف لقتل أي دابة تعبر بدون إذن، عندما ترجَّلتُ من السيارة وقتها حاوطتني بعض فوهات الأسلحة هذه لبرهة حتى أشار لهم الحارس "الذي فهمت فيما بعد أنه رقيب في فرقة عسكرية" فخفضوا أسلحتهم وسمحوا لي بالمرور.

كنت أسيرُ في تحفُّظٍ على خفقات قلبي المهترئة، فأدوس على مفاصلي فتهتز، أحاول جاهدة ألا أتعثر فيتدفّق الدم أكثر في أطرافي فتثلج، شعور القط بالتوتر عند ملاقاة الخطر، وكأن حادسي الأنثوي كان يدق ناقوس الخطر بداخلي فتضطرب أعضائي الداخلية.

عامة أكملت وجهتي بمصاحبة هذا الرقيب إلى أحد المباني بداخل المنطقة

قلتُ في ازدراء:

– وماذا الآن؟ ستكشفون عن الغزو الفضائي المحتمل؟

لم يجب أحد، احمرت وجنتاي والتزمتُ الصمت.

بعد رحلة مرهقة عابرين بعضَ أفراد الأمن وبعض البوابات والكاميرات وخلافه، أدخلني الرقيبُ إلى أحد المكاتب المكيفة الأنيقة، مكاتب ذات إضاءة زرقاء الخلفية، وشاشة عالية الجودة في الخلفية تظهر عليها الكرة الأرضية بكل تفاصيلها كالتي نراها في الأفلام الأمريكية، أما الحائط فحدِّث ولا حرج، مليء بالشهادات العسكرية والطِّبية والنفسية، والاسم دائمًا هو: "السير نيكولا ميتسوفيتشي"، اسم روسي بالطبع.

دخلتُ أتفحَّص المكان، فوجدتُ ثلاثة مقاعد في واجهة المكتب، يجلس اثنان من الرجال على مقعدين منها.

أحدهما قوي البنية ذو نظرات حادة يرتدي الملابس العسكرية، والآخر نحيف جدًّا، تكاد تشعر بأنه يلهث كالكلب ويرتدي قميصًا أبيض، وبنطالًا أسود وقبعة، آه يا ربي لكم أكرههم بقوة.

قلت:

- هالو، هل يشرح أحدكم لماذا نحن هنا؟

قلتها بإنجليزية صارمة.

نظروا إلى في هدوء، فقال ذو الملابس العسكرية:

- سنعرف إذا التزمتِ الصمت سيدتي.

قالها برصانة إنجليزية ولكن لهجتة تدل على أنه أمريكي وليس من المملكة المتحدة أبدًا.

استشعرتُ الإهانة وقتها تغيَّرت ملامح وجهي قليلًا وقلتُ:

- لربما التزمت الصمت مع شخص أكثر احترامًا معي.

نظر لي نظرة نارية وقال:

- الأمر لا يحتمل مهاترات سيدتي، التزمي الصمت وإلا سوف...

قاطعه صوت قادم من الخلفية قائلًا في لهجة رسمية:

- يبدو أنكم قد تعارفتم ببعض جيدًا، فلنبدأ العمل إذن.

نظرتُ خلفي فإذا برجل قد تجاوز الخمسين من العمر يرتدي بزةً عسكرية مليئة بالنياشين، صارم جدًّا حتى وهو يبتسم، من النوع

الذي قد تطيع أمره لمجرد أنه قد أمر به، قائد منذ نعومه أظفاره على ما يبدو.

قلت:

– أي عمل تقصد سيدي؟ أنا لا أعرف أين أنا حتى الآن.

قال:

– ستعرفين سيدتي حالًا، ولكن في البدء علينا أن تعرفي فريقك جيدًا.

وأشار إلى الرجلين بجانبي، قال:

– الرقيب صامويل فرانكلين، ضابط بقوات حفظ السلام الدولية وقائد العمليات الخارجية الأمريكية.

ثم أشار إلى النحيف وقال:

– السيد يعقوب جريفمان، صحفي تابع للقوات الإسرائيلية بقسم العمليات الإرهابية في الشرق الأوسط.

ثم أشار لي وقال:

– الدكتورة ليلى الشمري عالمة الآثار والحضارات العراقية.

همهم النحيف والرقيب بشيء، فأشار له السير فصمت.

وأضاف:

– وبما أننا قد تعارفنا، فأنا السير نيكولا، رئيس هذه المنظمة، المنظمة الدولية العالمية للحضارات القديمة والأنثروبيولوجي التابعة لحقوق الإنسان.

أنتم هنا في مهمة خاصة جدًّا، وفي خلال يومين ستكونان في العراق.

***

الرقيب صامويل فرانكلين

صوت تشويش.. يليه صوت يشبه صوت اصطدام الحصى بالجدار..

أخ.. لقد ضربتني هذه التافهة العربية، لم يتبقَّ إلا الرعاع والجراثيم حتى يتطاولوا علينا، أخ يا ربي، فلتذهب إلى الجحيم، يا لها من عاهرة لقد تسببت لي بجرح وجهي.

– سأقتلها بحق السماء.

"يصرخ بها"

– لكم أريد سحقها يا إلهي.

"يصرخ ثانية".

– هذه العاهرة

"يصرخ وصوت إلقاء الحصى"

صوت من الخلف:

– هدّئ من روعك يا صامويل، ستستحقها إن عاجلًا أم آجلًا فلا مكان هنا للهرب.

صامويل:

– اخرس واتركني أيها الجرذ، ألا ترى أنني مشغول؟

همهمة خلفية وصوت أقدام..

صامويل:

– امم.. إنني أسجّل هذا حتى يكون العالم شاهدًا من بعدي إذا ما حدث لي شيء ما، وحتى يكون قائدي على دراية بما قد مررنا به إذا ما أنقذنا الربُّ.

أين أنا؟؟ بداخل كهف قذر.

كيف أتينا إلى هنا؟ قصة يطول شرحها، ولكني سأقصها مهما يطل الوقت، فلديَّ هنا عدد لا متناهٍ من البطاريات والشرائط، فقد استعددتُ لمثل هذه المواقف في جيشنا العظيم.

صوت سعال..

صامويل بلهجة عسكرية:

– أنا الرقيب صامويل فيليب فرانكلين، رقيب بالجيش الأمريكي، أعمل في المنظمة الدولية العالمية للحضارات القديمة والأنثروبيولوجي التابعة لحقوق الإنسان، خدمتي هناك مكلّفة من الجيش الأمريكي الأقوى عالميًّا، مهمتي لا تقل أهمية عن أي ملحق عسكري في العالم، وقد تم تعييني من قبل قائد الفرقة لما يُعرف عني من تفانٍ من أجل الوطن، وقد كنت في العراق من قبل وقت الحرب، لذا فالأمر سهل بالنسبة لي.

ما دوري في المنظمة؟

دوري هو تأمين الرحلة العلمية لحفظ آثار آشور من الخطف والقتل، ولي مهمة ثانية هي الاستطلاع وتغطية عسكريين آخرين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه الحضارة.

آشور هي حضارة عربية عراقية عريقة، لا يفقه قيمتها هؤلاء الجرذان المسلمون.

أنا لا أعلم لماذا نعلّق أهمية قصوى على هؤلاء العرب؟هم جماعات طائفية تشتهي الدماء فقط، يظنون بهذا أنهم ينصرون الله إذا كان موجودًا في السماء، هؤلاء السفّاحون إذا دعتهم قدرتهم على امتلاك العالم فأول ما سيفعلونه هو محاربتنا ثم قتلنا، وربما حرقنا أحياء.

ولهذا لم أكن رحيمًا حين قتلت هذه العائلة العراقية في 2003، لم آبه بصراخه ولا بصراخ أطفاله حتى وإن توسَّل إلى قائدي ألا أفعل.

هؤلاء قتلوا عمّي في برج التجارة العالمي ولم أهدأ حتى أثأر له.

حسنًا، كل ما كنا نريده في هذه الرحلة هو إثراء الحضارة المندثرة فقط، فليسقط أي عربي بعدها.

بدأت القصة عندما استدعاني مكتب قائد الفرقة على عجلٍ وكنتُ وقتها قائم على تدريب ما.. هذا ليس له أهمية فيما أحكيه الآن.

المهم، ذهبتُ وكلي حماسة إلى القائد الذي يحتاجني في مهمة وطنية لإثراء الأراضي الأمريكية، فداءً أنا للأرض.

كان يجلس على مكتبة الفاخر المزين بالنياشين والأوسمة التي تلخّص حياته المشرفة في خدمة الوطن.

ألقيت تحيتي العسكرية في شموخ، ثم انتظرتُ.

نظر لي يتفحصّني وهو يعبث بشاربه الكثّ مُطولًا.

ثم قال بلهجة محببة:

– الرقيب صامويل، المتفاني دائمًا.

قلت:

- في خدمتك سيدي.

أمسك بملف ما ثم قال كأنه يقرأ منه:

- الرقيب صامويل جيكوب صامويل فرانكلين، سبع وثلاثون عامًا.. الممم.. خدمتُ في أفغانستان وإيران والعراق.

قلت:

- سيدي نعم سيدي.

"بلهجة عسكرية".

قال في اهتمام:

- قتلتُ منفّذي عملية القاعدة، واحد أيضًا الممم...

نظرتُ له ولم أُعقّب فقال:

- وكنت ممن أخرجوا صدام حسين من مخبئه، ممتاز.

قلت:

- فداءً للوطن سيدي.

قال:

- وكنت ممن اغتالوا قُصي والمرزوقي.

أخرجَ من درجه مجموعة صور وأشار لي لأستريح، فجلستُ وناولني الصور قائلًا:

- انظر جيدًا وقل لي أيها الرقيب، ماذا ترى؟

أخذتُ الصور وكان عددها سبعًا، وظللت أتفحصها.

كانت مما لا شك فيه صورًا لبعض الآثار العراقية التي درستُها قبيل سفري لبغداد في 2003، كانوا يصورون أسد آشور المشهور، وبعض آثار تدمُر وتماثيل للنمرود وحتحور والبابليين.

قلت:

– سيدي إنها آثار عراقية يا سيدي.

قال في اهتمام بالغ:

– كيف هو الوضع في العراق الآن يا صامويل؟

نظرتُ له متسائلًا وقلت:

– أنت أعلم مني سيدي.

قال:

– الوضع في العراق سيئ للغاية، التنظيم الإسلامي قد استولى على المثلث السُّني في العراق منها الموصل والفلوجة، وهو يتوغل ويتنشر كالجراد.

قلت:

– نعم سيدي.

أضاف:

- إنهم يشكلون خطرًا جسيمًا على كنوز العراق القديمة، وأنت تعلم أن قيمتها تتجاوز المليارات.

نظر لي ثم أضاف:

- الكونجرس قد اتفق مع الجيش على إرسال..

صوت سعال في التسجيل.

على إرسال فرقة لها خبرة في التعامل مع العراقيين والشرق أوسطيين بشكل عام، وستكون تحت إدارة المنظمة الدولية لحقوق الإنسان.

ثم إنه قد ترجَّل على قدميه وربت على كتفي وقال:

- وأنت يا صامويل ستكون المسئول الأساسي لهذه العملية.

قلت:

- شرف لي يا سيدي، ولكني لا أعرف حتى الآن ماذا تريدونني أن أفعل.

قال:

- سيرسلونك مع فريق إنقاذ ومتخصصين في الآثار وبعض الجنود في سرية تامه لمعاينة الأضرار التي لحقت بالآثار، وأنت لديك مهمة خاصة يا صامويل.

قلت:

- سيدي أمرك سيدي.

قال بصرامة:

- ستعود ببعض الآثار الآشورية، وتوراة الكفل يا صامويل.

قلت وقد بدأت أفهم:

- سيدي تريدني أن أنبش قبرَ النبي ذي الكفل ثانية؟ ولكن سيدي....

قال:

- ستُنفذ الأوامر يا صامويل، هي مهمتك.

قلت وأنا أؤدي التحية العسكرية:

- حسنًا سيدي، ولكن سيدي اسمح لي.

أشار لي فقلت:

- لقد حصلت عليها إسرائيل بالفعل بعد حرب العراق سيدي.

قال:

- لم تكن النسخة الحقيقية يا صامويل، ستعثر عليها وستُعيدها لأصحابها.

أشار لي بالانصراف فألقيتُ التحية العسكرية واتجهتُ إلى الباب.

ثم تراجعت فقال:

– ليس لديَّ وقت أيها الرقيب، ماذا تريد؟

قلت:

– سيدي متى سأسافر إلى العراق؟

قال:

– ستذهب أولًا إلى لندن لتتعرّف إلى فريقك ثم ستغادرون بعدها، استعد فغدًا ستكون هناك.

حييتُه ثم غادرتُ وأنا كلي تساؤلات وحزين بداخلي.

فقط توقعتُ مهمة تكون أكثر أهمية وقيمة من أن أكون حارسًا خاصًّا وسارقًا، نعم أحبُّ وطني وأفديه بروحي، ولكني بهذا أخدمُ سياسيَّ الوطن، هل عليَّ أن أتخلى عن كل ما تعلّمته من مبادئ حتى أخدم وطني؟ أبهذا يقوم الوطن؟

هذه الليلة هممتُ بجمع ملابسي، وسمحوا لي بالمغادرة إلى المنزل حتى أُودِّع زوجتي و" روز" ابنتي، فالرحلة ستكون طويلة.

أخ، لطالما استمعت من قصص الزملاء ممن كانوا في فيتنام وقت الحرب، الغالبية قد جُنُّوا وعُلِجُوا نفسيًّا مما رأوه هناك، وأنا وقتها كنت قد أقسمت بألا أعود إلى العراق ثانية، فما فعلته وقتها لا يُنسى بسهولة.

لا لم أكن في أبي غريب، ولكن هناك دائمًا ما هو أسوأ من أبي غريب.

لا أريدُ أن أتذكر كل هذا، لماذا بحق المسيح؟ لماذا أنا؟

في هذه الليلة، قررتُ أن أحتفل كما لو كانت آخر ليلة لي.

فاجأتُ زوجتي وقبّلتُ ابنتي الحبيبة، كانت ليلة رائعة، العلاقة الجنسية تكون في أوجّها إذا ما افترق روادها لفترة من الزمن، وأنا كنت غائبًا أكثر من شهر.

انتهيتُ وأنا أرى زوجتي تبتسم باشتهاء وتنظر لي وكأنها كانت تتلوى على ذكراي، آه يا حبيبتي، لكم أفتقد عينيك الزرقاوين، وخصرك الملتوي، لكم تتلوّى كفي يديَّ شوقًا لملامسة نهديكِ الساخنين دائمًا ما أكون بقربك.

"لحظات من الصمت"

انتهيتُ وارتديت ملابسي وأنا عاقد العزم على احتساء كأسٍ من الجاك دانيالز.

هممتُ بالنزول وأنا أسمع أنفاس حبيبتي ينتظم مما يعني أنها قد نامت.

أخذت كأسًا فارغة وأخرجت القنينة وصببتُ كأسًا وارتجعتها.

من كثرة التفكير وقتها لم أشعر بنفسي إلا وقد فرغت الزجاجة كاملة والصباح قد اقترب.

ارتديتُ ملابسي العسكرية وأخذت ملابسي الأخرى، وقبّلت زوجتي وابنتي وداعًا، ثم رحلت.

وصلت الوحدة العسكرية في نيفادا في الرابعة والنصف صباحًا، وتحرّكنا في الخامسة والنصف بالطائرة، ما هوّن عليَّ الأمر وقتها أن اصطحبني أصدقائي من الفرقة ممن كانوا معي في العراق.

كم كان هذا جميلًا! فلن أكون وحدي إذن.

وصلنا لندن على ما أتذكر – صوت سعال – في الساعة الثامنة إلا ربع ساعة.

لن أُطيل الشرح، فالمكان كان كأي وحدة عسكرية في أنحاء العالم مع اختلاف أزياء الحراس، نفس البوابات ونفس الطقوس وهذا ليس جديدًا عليَّ، أدخلوني مكتبًا ما ذا إضاءة زرقاء، أشار لي أحدهم بالجلوس على أحد المقاعد الخالية فجلست، لاحظت أن هناك اسمًا روسيًّا يتوسط المكتب أمامي "السير نيقولا ميتسوفيتشي".

الموضوع أكبر مما أتصوَّر إذن.

مرّت دقيقة ليدق الباب من خلفي، نظرت فوجدتُ شخصًا نحيفًا يرتدي قبعة مضحكة وملابس عادية مكونة من قميص وبنطال، له

نظرات تظنّها بريئة، ولكنها في الحقيقة تشعُّ ذكاءً وخُبثًا، وكان يُشبهُ اليهود كثيرًا، فأنا تعاملت معهم وأعرفهم، وقد جلس بجانبي وهو يلهث.

نظرتُ له غير مكترث، فابتسم ومدَّ يده مصافحًا وهو يلهث وقال:

- أنا رفيقك في الرحلة؛ وعلينا أن نتعارف أظنُّ، أنا يعقوب جريفمان، صحفي إسرائيلي.

قلتُ في نفسي جرذ آخر، ابتسمتُ وصافحته في برودٍ وقلتُ بصوت لا يخلو من الرسمية:

- الرقيب صامويل فرانكلين، وأظنُّ هذا يكفي.

متوددًا قال:

- هل اتصلوا بك أنت أيضًا؟ أم كلّفتك الحكومة بهذا؟

لم أرد فقال:

- أنت أمريكي أليس كذلك؟ مع أن وجهك يدل على أصول أوروبية.

تابع في استعطاف تمثيلي:

- أنت تعرف، كلمة أوروبا وخاصة ألمانيا تُذكرني بالهولوكوست، هل تعلم أن أبي كان هناك؟

أخذتُ نفسًا عميقًا في ملل، وأنا أقول بداخلي:

"ألا يوجد يهودي في هذا العالم لم يُحرق أبوه في المحرقة؟ إن هتلر كان متفرغًا لحرقكم إذن".

قلت:

– إنه لشرف لي أن أتعرف إليك ولكن الوقت لا..

قال مقاطعًا:

– وإسبانيا،نحن كنا وسنظل مضطهدين، حاول أن تعيش كيهودي يوم واحد في سوريا وأنت تعرف كيف هو التعالي إنه..

كنت على وشك أن أُخرج سلاحي ثم أقتله وأستريح، ولكن قطع كلامنا صوت سيده تدخل، كانت عربية جدًّا، ولكني في باديء الأمر ظننتها آرمينية أو يونانية بشعرها الأسود هذا.

قالت:

– هالو، هل يشرح أحدكم لماذا نحن هنا؟

قلتُ بحدَّةٍ وقد بدأت أفقدُ أعصابي من هذا اليهودي وهذا المكتب وهذه المهمة:

– سنعرف إذا التزمتِ الصمت سيدتي.

قلتُها بحدة:

من الواضح على ملامح وجهها أنها قد استشعرت الإهانة فقالت:

- لربما التزمت الصمت مع شخص أكثر احترامًا معي.

نظرت لها وأنا على وشك فقد أعصابي وارتكاب جريمة:

- الأمر لا يحتمل مهاترات سيدتي، التزمي الصمت وإلا سوف..

هنا دخل السير نيقولا وقد عرفته من وجهه الروسي بشكل مبالغ فيه..

وقال:

- يبدو أنكم قد تعارفتم ببعض جيدًا، فالنبدأ العمل إذن..

قالت المرأة:

- أي عمل تقصد سيدي؟ أنا لا أعرف أين أنا حتى الآن.

قال نيقولا:

- ستعرفين سيدتي حالًا، ولكن في البدء عليك أن تعرفي فريقك جيدًا.

وأشار إلينا.

قال وهو ينظر لي:

- الرقيب صامويل فرانكلين، ضابط بقوات حفظ السلام الدولية وقائد العمليات الخارجية الأمريكية.

نظرت لها فقالت فيما معناه: تشرفنا.

ثم أشار إلى يعقوب وقال:

– السيد يعقوب جريفمان،صحفي تابع للقوات الإسرائيلية بقسم العمليات الإرهابية في الشرق الأوسط،

ثم أشار إليها وقال:

– الدكتورة ليلى الشمري عالمة الآثار والحضارات العراقية.

قلتُ بصوتٍ منخفض وأنا ألعن المهمة:

– وكأنه ينقصنا بعض الرعاع لتكتمل.

قال لي يعقوب بصوت خفيض:

– لن أعمل مع هذه البدوية.

أشار لنا السير فصمتنا ثم أضاف:

– وبما أننا قد تعارفنا، فأنا السير نيكولا، رئيس هذه المنظمة، المنظمة الدولية العالمية للحضارات القديمة والأنثروبيولوجي التابعة لحقوق الإنسان.

أنتم هنا في مهمة خاصة جدًّا، وفي خلال يومين ستكونون في العراق.

طبعًا أنا أعرف طبيعة المهمة منذ رحيلي، ولكن تفحصت الوجوه وتعبيراتها من حولي.

ليلى كانت مندهشة إلى حدِّ الرعب، يبدو أنها أول مرة تسمع هذه الكلمات الآن.

أما هذا الجرذ فقد كان يلهث بلا اكتراث، إذن فهو يعرف ما نحن فيه.

قالت ليلى:

– لا لن أُسافر العراق أنا، ألا تعلمون أن بها حربًا؟ هل أنتم عقلاء؟

همَمت بالرد الحاد فأخرسني هذا السير وقال:

– سيدتي، نحن في حاجة إليك.

قالت:

– ومن أنتم؟ حقوق الإنسان؟

قال:

– بالطبع من تظنينا نحن؟

قالت في ذكاء:

– وهل منظمة حقوق الإنسان تهدي الرتب العسكرية الآن أيها السير؟

نظر لها السير في خُبثٍ ثم قال:

– نحن أفراد من جيوش الأمم المتحدة تحت إدارة حقوق الإنسان.

سيدتي، أنتِ أكثر من يعلم ويقدّر حجم الكارثة التي فعلها أفراد التنظيم في آثار العراق.

قالت:

– أنا لا أعرف طبيعة المهمة حتى الآن.

قال يعقوب:

– دكتورة، لقد علمت أن طبيعة العملية هي المعاينة فقط، لسنا هناك لنحرر زملاءك من المجاهدين.

نظرت له وكادت تَسبُّ أمه، فقال السير:

– سيدتي، نحن نريد أن ننقذ العراق من الخراب، ولا تقلقي فالحراسة ستكون مُشددة عليكم، ولن يُصيبكم أذًى.

قالت ليلى:

– وما المطلوب؟

قال السير:

– ستذهبين بصحبة الصحفي يعقوب لمعاينة حجم الدمار، وتقدمان تقريرًا وفيًّا للمنظمة، وهل يستدعي ذلك تدخلًا عسكريًّا أم لا، والرقيب صامويل من سيقوم بحمايتكم هو وفرقته.

نظرت لي ليلى وقالت:

- حسنًا، وكم من الوقت سنستغرق هناك؟

قال:

- أسبوعين، والسفر والإقامة ومكافأة مجزية أيضًا في انتظارك.

قالت ليلى:

- سأفعلها ليس لأجل المكافأة ولكن لأجل الآثار والتاريخ فقط.

قال السير:

- وأنت يا يعقوب، هل تعرف العراق جيدًا؟

قال يعقوب:

- سيدي إن جدودي قد سباهم نبوخذ نصر سيرًا إلى العراق ولنا أنبياء مدفونون هناك بالطبع نحن اليهود ك...

بحق المسيح "قلتها في ضجر" ثم أضفتُ:

- يعقوب.. نعلم أن العالم كله قد اضطهدكم انتهينا.

ضحكت ليلى، ويبدو أن كلامي أعجبها وقتها.

حسنًا، هي جميلة، وضحكتها برَّاقة ولكنها عربية، وستقتلني إذا ما أُتيحت الفرصة، فلأستعد إذن.

قال السير:

- أمامكم يومان، تجهَّزوا، ونصيحة، حاولوا أن تتصادقوا أكثر من هذا حتى تمر المهمة في سلام.

وأشار لنا أن نخرج على أن نحضر بعد غد في السابعة تمامًا.

حييته، واتجهت صوب الباب، وتبعني يعقوب ثم ليلى.

كانت التعليمات هي أن نتعارف، نتصادق، نتعلم كيف يكون على وفاق، وهي مرحلة صعبة حيث إن ثقافاتنا واختلافاتنا من حيث المعتقدات والتاريخ تجعلنا على صراع دائم حتى ولو توهمنا التحضُّر.

على العموم – سعال ثم صوت بصقة – علمنا أن المنظمة قد حجزت لنا ثلاث غرف في فندق فخم في لندن يُسمى "روز وود"، وهو فندق أثري أو كما يسمّونه فندق شاي الخامسة، وهو جو مناسب للتسامر والتعارف أكثر.

وصلنا الفندق في الحادية عشرة صباحًا أنا والدكتورة والصحفي، أما باقي فريقي من العسكريين فقد رُتّب لهم المبيت في المعسكر.

تسلّمنا مفاتيح الغرف و – آه نسيت، فهذا الجرذ طول الطريق كان يستمتع بتذكيرنا بهتلر والمحرقة – وكنت قد أوشكتُ أن أُفصح له أنه إسرائيلي من أصلٍ شرقي أو كما يسموهم "أشكيناز" وأنه لم يذهب قط لا هو ولا أي من أفراد عائلته إلى ألمانيا النازية، ولكن ليلى تولت الأمر عني بأن أعربت عن شعورها بالإرهاق، وافترقنا.

قال يعقوب بعد مغادرتها ونحن في الطريق إلى الغرف:

– قل لي يا أيها الرقيب، من أين أنت تحديدًا؟

قلتُ وقد قررتُ أنْ أُزيل بعض الثلج بيننا كما نصحني نيقولا:

– الولايات المتحدة.

قال:

– آه هذه الدولة، لي عم يعمل في الكونجرس الأمريكي مع السيناتور كاليفورنيا، على ما أظن اسمه جيف ستون أو شيء من هذا القبيل، أنت تعلم أن المحرقة لم تكن...

صحتُ:

– ألن تكفَّ عن هذا الرثاء الرخيص؟ لا أريد سماع كلمة أخرى عن اليهود.

نظر لي نظرة تعني الكثير، ثم تركني وذهب.

كنتُ أنا وقتها أشعر بالحنين إلى زوجتي وابنتي، وكنت فعلًا أريد النوم، فأنا لم أنم منذ البارحة صباحًا، وضعت أغراضي ورتبتها ثم لامست الفراش ونمتُ.

كانت حجراتنا نحن الثلاثة مُتلاصقة، والشرفات بجانب بعضها البعض.

في الصباح الباكر جدًّا، سمعت صوتًا أُنثويًّا يصرخ بحرقة كمن رأى جثة ملقاة أمامه.

فزعتُ، استعدتُ وعيي سريعًا ثم وثبت إلى الشرفة في اتجاه الصوت لأجد شيئًا لم أتوقعه قط...

الصحفي يعقوب جريفمان

هؤلاء الأوغاد، سُحقًا لهم.. مَن يظنون أنفسهم حتى يطردوني هكذا؟

الآن أو بعد حين سيأتون عند قدمي وسيركعون، سيترجونني أن أسامحهم أن أغفر لهم كما ترجتنا ألمانيا أن نسامحهم، وعندها فقط سأستريح، فبدوني لن ينجوا مطلقًا، أنا مصور صحفي ولست جيدًا في السرد، ولكن سأحاولُ أن أشرح كل شيء..

إسرائيل العظيمة، أشتاق إليك يا إسرائيل، يا أرض جدودي ومن سيأتون بعدي.

هي أرض الميعاد كما وعدنا الرب، ويومًا ما مسيحنا ابن داوود سيأتي، وسنرجع مملكتنا كما ملكناها من قبل.

نعم، أقول هذا الآن، فربما كانت هذه هي كلماتي الأخيرة، وعليَّ إيصال الرسالة أيًّا كانت ولمن تكون، إسرائيل باقية، وستظل.

إسرائيل هي من أرسلتني هنا، إسرائيل هي من بعثتني هنا ويعرفون أين أنا وسيأتون إن عاجلًا أم آجلا، فهم لم يتركوا "جلعات شاليط" في أيدي الرعاع العرب، وقبلها ثأروا من كل من كان سببًا في المحرقة، وبالتأكيد سيأتون لهذا الكهف القذر، وسأخرج.

كيف بدأ كل هذا ومن أنا؟أنا المصور الصحفي يعقوب جريفمان، مصور في جريدة معاريف الإسرائيلية، مصور نَشِط وخدمت من قبل في جيشنا الذي لا يُقهر.

كنتُ أخدمُ وقت أحداث الهمجية العربية، أو ما يسمونها الانتفاضة.

أي انتفاضة، ولماذا؟ هذا السؤال الذي يُراودني كثيرًا جدًّا.

مَن يقوم بانتفاضة أو ثورة أو حتى حرب للبقاء، يكون من أجل حق لهم، أو أرض مغتصبة أو شرف أو عِرض، وتتعدّد الأسباب، ولكن لماذا ينتفض هؤلاء الرعاع؟ ربما يظنون أن الأرض أرضهم، وربما يحلمون بعودة الأرض تحت رايتهم ثانية، يحلمون، فليتوحدوا أولًا ثم يحدثونا عن حقوق، حقوقهم خارج أرضنا المقدسة أرض الهيكل، أرض الوهيم.. على هذه الأرض عِشنا،وعليها نموت، عشتِ يا أرض اليهود.

كنت أخدم، وكنت أُقاوم أحجارهم ونيرانهم، والكل شهد لي بذلك، حتى أجسادهم المفخّخة قاومناها.

لماذا كانوا يعاملوننا هكذا؟ هل يظنون فعلًا أننا اغتصبناها كما تروّج لها جبهة التحرير الفلسطينية أو حماس؟

هؤلاء لا يريدون إلا السيادة، وقد تناسوا شعوبهم، لا يتعلمون منا أي شيء.

فليأتِ لي أحدهم، ويقص عليَّ إنجازًا علميًّا أنجزوهُ، أو اكتشافًا اكتشفوه.

صفر، هذا هو جُل إنتاجهم، ولو تركنا أرضنا لهم لصارت سوريا أو عراقًا آخر.

انظروا بحق خروجنا من سيناء مرتين، كيف هي سيناء الآن؟ مقارنة بإيلات هي لا شيء.

لا يتعلمون أبدًا، لا ينجحون إلا في الشعارات الواهية عن الوطن والدين، والترويج لبعض مقولات نبيهم البدوي.

حسنًا.. لن أتطرق في الحديث عن تاريخ كلنا نعلمه، وحقوق كلنا نعلم أحقيتها لمن، ولو كنا أشرارًا كما يروجون لطالبنا بالعراق والمغرب واليمن ومصر وإثيوبيا والأرجنتين وكل دولة أقمناها وعشنا بها.. فليشكروا ربهم إذن.

ما سأقصّه الآن هي بضعة أسباب لما آل إليه حالنا الآن؟

لا ليس حال اليهود أنا أتكلم عن الورطة التي تم توريطنا فيها، هذا الكهف الوعر والسجن الذي كتب لنا السكن فيه إلى ما شاء الرب.

ما حدث ببساطة هو أنه قد تم تكليفي من قبل جريدة معاريف بأن أكون ضمن الوفد الصحفي المرافق لرحلة العراق.

وما رحلة العراق؟ هي رحلة نظمتها المنظمة الدولية لحقوق الإنسان لتقفي التلفيات التي أحدثها هؤلاء الكاذبون من حثالة المرتزقة العرب في آثار تدمر وآشور، وبالطبع ما حدث في الكفل والنبي يونس لا يُغفر، وأنا كنت هنا للتصوير وتقديم تقرير عمّا وجدناه.

لا أتذكّر التاريخ بالضبط ولكن كان هذا في آواخر 2015 أوائل 2016،كنت كعادتي أتمشّى في شوارعنا النظيفة في تل أبيب، أستنشقُ الهواء الذي استنشقه جدودي من قبلي بكل حرية، أستمتع بهوائنا، نعم كان يوم أحد، فقبلها كان "شابات شالوم" وكنت أقضيه مع عائلتي في الجنوب.

ما حدث هو أنني وجدت بعض العسكريين يقبعون بداخل الجريدة خاصة عند مكتب رئيس التحرير السيدين "وورن غلعيزر" و"روني يوفيل".

مكتبي يقبع بجانب حجرة السيد ورون، فلهذا كنت أتابع الحوار في شغف.

لم أسمع منهم وقتها إلا عبارات على غِرار:

"سنغرق، علينا أن نستعيدها، إنها لنا"، وأشياء من هذا القبيل.

مَرَّت وقتها دقيقتان ثم استدعاني السيد ورون والسيد روني، لماذا أنا؟ تساءلتُ في حيرة:

دخلتُ، وأنا لا أفقه شيئًا، هل تصويري لأحداث غزة كانت عنصرية قليلًا؟ أم أنهم يستدعونني للجيش ثانية؟

دخلتُ مكتبه الفخم في شغف، وحيرة فوجدت اثنين من قادة جيشنا العظيم يجلسان مع السيدين رئيسي التحرير، نظر لي السيد ورون وقال لي في هدوء مبالغ فيه:

– تفضّل يا يعقوب، وأغلق من خلفك الباب.

وهكذا فعلت.

نظر لي القائدان اللذان علمت فيما بعد أنهما السيد غادي أيزنكوت رئيس الأركان والسيد بيني غانتس رئيس الأركان الأسبق.

قال السيد غادي:

– يعقوب جريفمان، من عائلة جريفمان الشهيرة.

قلت:

– العفو سيدي.

قال لي وقد اعتدل في جلسته:

– جدك هو إسحاق جريفمان؟

قلت:

– نعم سيدي.

قال:

– أوووه أنت مناضل بالوراثة إذن.

قال السيد ورون وهو يبتسم:

– نعم سيدي القائد فنحن لا نقبل إلا الوطنيين هنا.

صمتُّ وقتها مع ابتسامة خفيفة للحد من التوتر، فقام السيد بيني من جلسته وتفحَّصني جيدًا، ثم نظر إلى السيد غادي وقال:

– نعم هذا ما نحتاجه في هذه المهمة.

نظر لي ثم قال:

– ما تاريخك العسكري يا يعقوب؟

قلت بتفاخر:

– سيدي أنا خدمت ثلاثة عشرة عامًا تحت لواء الراف سيرن "شوميل كوبر" سيدي.

قال:

– أين كانت خدمتك؟

قلت:

– كنتُ على الحدود سيدي.

قال:

– علمتُ أنك قد شاركت في صبرا وشتيلا.

قلت:

– والانتفاضة سيدي.

همهم بسعادة كمن وجد ضالته، ثم قال:

– يعقوب، بلا أي مقدمات نريدك في مهمة قد تكون شاقة عليك قليلًا..

قلت:

– أمرك سيدي، ولكني قد تركت الجيش منذ سنوات، واللياقة لم تعد تسمح.

قال غادي:

– ما نحتاجك فيه ليس له علاقة بالمرونة أبدًا، ستفهم كل شيء، ولكن حاول أن تجهّز، فأمامك رحلة شاقة، قل لي: هل تتحدث العربية؟

قلت:

– سيدي إن والدتي من أصل عراقي.

قال:

– ولهذا ستسافر إلى العراق.

قلت لنفسي: العراق! الأرض التي عاش فيها أهلُ أمي وترعرعوا، تُرى ماذا سأفعل هناك؟ ما أعرفه أن هناك حربًا عرقية تدار هناك بين الشيعة والسنة، وبين الأكراد والسنة، وبين السنة وداعش، لماذا سيرسلونني هناك؟

في اليوم الذي تلاه كنتُ أجهز حقائبي، ومعي جواز السفر والتأشيرة العسكرية، يبدو أنها مهمة شاقة فعلًا.. فالأوراق لا تسير بهذه السرعة إلا إذا كان أمرًا طارئًا.

قال لي القائد قبل أن أستقل الطائرة بساعتين:

– ستذهب إلى لندن، ومن هناك ستتعرّف إلى فريقك الجديد، ومهمتك هي تقرير عن مدى سوء الأوضاع في العراق، وبعض الصور فقط.

كانت رحلة شاقة فعلًا من مطار تل أبيب إلى لندن..هناك أدخلوني منطقة عسكرية وقابلتُ المدعو نيقولا الروسي، يبدو أنه عسكري مُخضرم وهو القائم على العملية، قابلتُ هذه العربية ليلى، يقولون

إنها خبيرة أثرية ما ولكني لا أكترث، فمهما تفوقوا سيظلون رعاعًا، وقابلتُ أيضا هذا الأمريكي الشرس المدعو صامويل، كرهتهم من أول مقابلة ولكني لا أكترث، فأنا حفيد شعب الله المختار، هم مجرد بعض النازحين الأوروبيين الذين قتلوا آلاف الهنود الحمر من أجل وجودهم في هذه الأرض التي لا تحقُّ لهم، مثلهم كمثل القبائل البربرية التي تسكن الشرق الأوسط.

بعدما تعارفنا نزحنا إلى الفندق في لندن، وهناك أعطوني أقذر حجرة لديهم.. أنا لا أعلم لماذا يمقتونني بهذه الطريقة؟ فأنا لم أحتلهم حتى.

حسنًا، في هذه الليلة النكراء لم أستطع النوم، نحن في فندق في لندن، هناك بار ما أستطيع السهر فيه كيفما أشاء، بل من الممكن أن أتذوق الخار لأول مرة في حياتي، فهو محرّم في أراضينا المُقدسة، وبالفعل، نزلتُ، واحتسيتُ الكثير من الجاك دانيالز المحبب لديَّ، هنا في لندن حتى أنواع الخمور أرستقراطية كفرنسا، تشرب ثم من أول رشفة لا تتذكر من أنت.

كنتُ شاردًا أفكِّر في الرحلة التي أنا ذاهب إليها، فسمعت صوتًا أُنثويًا يتحدث من خلفي، صوت يتحدث العربية ولا شك فيها.

استدرتُ، فإذا بها الدكتورة ليلى بنفسها، هذا اللون الأبيض والشعر الأسود المسدول لا يمكن أن يكون لغيرها.

بخطوات ثابتة اتجهتُ صوبها، يبدو أنها كانت مشغولة بشرح شيء ما للنادل وهي تجلس ممسكةً بكتابٍ ما.

مشهد هو مُقزز بالنسبة لي، ماذا يفعل كتاب في بار للخمور؟

نظرتْ لي فعرفتني.

قلت:

– كتاب في بار؟ ما هذا السخف؟

قالت:

– ليس من شأنك يا جيكوب "قالتها بالنطق الإنجليزي لها"

قلت لها مبتسمًا:

– جيكوف إذا أردتِ الدقة.

قالت:

– وماذا تريد يا يعقوب؟

قلت:

– لا شيء فقط استغربت من كونك تجلسين في بار وأنتِ مسلمة؟ ألا تحرّمون الخمور؟

قالت:

– وأنتم ألا تحرّمون المحار؟ لماذا تفوح رائحته من ملابسك إذن؟

قلت:

– في إسرائيل ربما وليس خارجها.

قالت:

– الرب يقبع في كل مكان، فهو لا يسكن إسرائيل على ما أظن.

قلت:

– أنتِ ذكية يا دكتورة، ويبدو أنك لست بمؤمنة بمحمد إذن.

قالت:

– إيماني بالله ورسوله شيء يخصُّني ولا يخصك أنت.

قلتُ مازحًا:

– دكتورة ليلى إنني أمزح، نحن في بار، أين سنتعارف أكثر إذن في المسجد؟ أنتِ تعرفين أنني إذا دخلتِ هناك أحترق.

ضحكت، وابتسمتُ لها، دعوتُها إلى مشروب فوافقت.

هنا سألتها سؤال يُحيرني قلت:

– دكتورة ليلى أنتِ العربية الوحيدة التي لا تحتقرني كوني إسرائيليًّا، لماذا؟

قالت، وهي تبتسم:

– ربما لأني أحمل الجنسية الإنجليزية؟

همهمت ثم قالت:

– حسنًا، أنا متحضّرة، وأؤمن أن الأرض كلها لله، والقضايا السياسية للسياسيين، وأنت على ما أظن لا تضع غطاء على عينك اليسرى..

قلت:

– وأنا أيضًا لا أكرهك، فأنتِ لا تشربين البايب..

قالت:

– أليس البايب هو من وضع السلام شرطًا؟

كانت تتحدث عن السادات، وموشيه ديان بالطبع.

قلت مقاطعًا:

– دكتورة، فلننسَ كل هذه المناقشات، ولنحتسِ مشروبًا.

كنتُ قد بدأت بالفعل أُعجب بها، هي جميلة، وليست متزوجة، وأنا أعزب، نعم أنا يهودي، ولكن الهرمونات لا تعرف العنصرية.

قالت، وهي تداعب أطراف شعرها الأسود:

– الممممم موافقة.

ورشفنا معًا.

تسامرنا كثيرًا، وتحدثنا عن المهمة التي نحن بصددها، كانت تضحك كطفلة تقود الدراجة لأول مرة فيتطاير شعرها الأدكن وراءها، وأنا كنت قد نسيت كل الخلافات العرقية بيننا وبدأت أتخيلها في الهيكل، وهي ترتدي الفستان الأبيض وتُغطي وجهها بالغطاء، ويقرأ لنا الحاخام الأكبر من التوراة، ويعلننا زوجًا وزوجة، ثم أحملها بين المروج في القدس،ونلتقي اللقاء المقدس على ألحان الكمان.

آه يا الواهم، لماذا انجرفت بنا الأحداث إلى ما وصلنا إليه؟

على العموم، كان الصباح قد أشرق، وكان علينا أن ننام حتى ولو ساعتين حتى نواصل الغد الطويل.

أوصلتها إلى غرفتها على وعد باللقاء،فأشارت لي بالموافقة وعيناها تتحدثان عنها، نعم إنها معجبة بي أنا أيضًا.

عندها، قرّرت أن أودّعها الوداع الأمريكي، أن أُعبِّر لها عن إعجابي بها.

اقتربت منها، وفي لحظة، لامست شفتاي شفتيها، دقيقة كاملة لا تتحرك هي، وأنا أتلذذ بطعم أحمر شفتيها، وكأن العالم قد توقَّف ليشهد لنا بالقُبلة.

ربما كان تأثير الخمر، وربما كانت مشاعري حقيقية.

فجأة، وبدون سابق إنذار، أبعدتني بصفعة قويةٍ وهي تصرخ.. تصرخ كمن أُصيبت بالقولون العصبي حتى أنني قد تفاجأتُ بردة فعلها.

كانت تصرخ، وتبكي، وتقول:

– أنت يهودي، يهودي.

لم أدرِ بنفسي إلا وأنا قد احمرَّ وجهي وتجمهر الناس من حولي، لمحت من خلفي الرقيب صامويل الشرس يأكل الدرج أكلًا.

لم أنتظر حتى أشرح للناس أنها كانت قبلة، وأخذت ما تبقى من كرامتي على ظهري، ودخلتُ حجرتي.

لكم أكرهها هذه الراعية الغبية! لقد أعجبت بها فعلًا، لم أكن أنوي اغتصابها.

ساعة مرت وأنا أحاول النوم والنسيان، أسبُّ وألعن اليوم الذي جمعني بهم.. حتى أيقظني صوت طرق على الباب.

قلت:

مَن؟

قال الصوت:

– الرقيب صامويل يا يعقوب، أريدُ أن أحادثك في شيء.

كنتُ في قرارة نفسي أعرف ما سيقول، وقد استعددتُ له، قلت:

– سأنام قليلًا، وسأكون جاهزًا للرحلة.

قال:

– لا، أنا أريدك في شيءٍ آخر.

قلت:

– أعرف، سأوافيك بعد ساعتين.

صمتَ قليلًا ثم طرق طرقة غضبٍ وذهب، عندها أسلمتُ عينيَّ للنوم وانزلقتُ.

في المساء استيقظتُ، لقد نمت ما يزيد عن الأربع عشرة ساعة، نظرت إلى الساعة فإذا بها الثامنة مساء، هل تركوني وسافروا؟

لا أعرف، ولكن هو أمر ليس مستبعدًا مطلقًا.

ارتديتُ ما يتوافق مع الأمسية، ورفعت سماعة الهاتف اطلب هاتف صامويل.

أريد أن أتأكد إذن.

أجابني موظف الاستقبال بهذا الاحترام الإنجليزي المصطنع، هذه اللهجة التي كانت تأخذ الأذن قبل القتل على غِرار "سيدي، اسمح لي سيدي أن أقطع رأسك سيدي"، هي لكنةٌ لم تُخلق للقتل قط.. مثلها كمثل الفرنسية، من الصعب أن تتخيل فرنسيًّا يسب أو يلعن حتى لعناتهم بها رومانسية.

حسنًا، قال الموظف وقتها إن صامويل كان قد غادر حجرته منذ ساعات.

عندها فقط بدأت القلق، هل غادروا من غيري بعد أن قبّلت ليلى؟.. لقد كانت قبلة بحسن نية لم أقصد كل هذا.

على العموم واختصارًا للوقت، عرفت فيما بعد أنهم قد ذهبوا للتسوُّق قبل الرحيل.

ذهبتُ إلى البار، واحتسيت بعض "الجاك دانيالز" حتى ظهروا في الأُفق.

قلتُ لهم وقد كنت قد بدأت السكر:

– ألا يوجد وقت للمرح ليعقوب اليهودي؟

نظرتْ لي ليلى التي كانت تحمل الكثير من الشنط باشمئزاز ثم قالت إلى صامويل:

– فلنصعد لنستعد يا صامويل، فقد آن أوان الاستعداد، والرحلة لن تنتظرنا كثيرًا.

قال صامويل بلهجة عسكرية:

– حسنًا سيدتي.

ثم نظر لي مُوجهًا حديثه إليّ، وقال في عصبية:

- وأنت أيها الجرذ، أريد أن أحادثك.

سحبني من ياقة القميص، فقلتُ:

- أنت أنت، بعض الاحترام هنا.

لم يستمع لي وأكمل سحبه المُهين.

جلسنا في الردهة واحتسينا الشاي، لندن التي تشتهر دائمًا بالشاي، شاي الخامسة وشاي الثامنة.

كان لا يتحدث مطلقًا حتى أتى النادل بالشاي، ثم بدأ يتكلم بعد أول رشفة.

قال لي وإن لم يتخلَّ عن لهجته العسكرية:

- ألستَ يهوديًّا يا يعقوب؟

قلت:

- بلى ولي الفخر يا صامويل.

قال:

- حدّثني إذن عمّا فعلت مع هذه المسلمة.

قلت:

- وما شأنك أنت؟

قال، وقد بدأ يحمرّ وجهه:

- يعقوب، نحن فريق هنا، ولا نريد أن نخسر معنى المهمة من أجل صراعات عرقية ليس لها دخل بمهمتنا، أنت تعلم أنهم يُحرّمون كل شيء، وتعلم أنها كعربية ت...

قلتُ مُقاطعًا:

- تمقتني، صحيح؟

قال:

- نعم، وأنت تعرف لم...

قلت:

- لا ذنب لي أنها تعتقد هي وأهلها أن الأرض من حقها، هي أرضنا معشر اليهود وأنت تعلم هذا.

قال:

- أنا أعلم، ولكنها تعتقد غير هذا، وليس هذا موضوعنا.

مالا تعرفه أن ليلى مصرية نعم، ولكن والدها ليست مصرية، وهو أمر مهم عليك أن تعلم عنه قبل أن نبدأ السفر في الغد.

قلت:

- وما هو؟

قال:

– والدها فلسطينية من قطاع غزة، وقُدسية الأصل.

قلت وقد بدأتُ أندهش:

– فلسطينية؟!

قال:

– نعم، وإن لم تكرهك لما حدث في سيناء، ستكرهك لما يحدث في غزة، ابتعد عنها هي ليست لك.

قلت:

– وماذا أفعل في قلبي إذن؟

قال، وقد أخرج سلاحه الميري:

– أستطيع أن أنيّمه لك إن أردت.

ابتلعتُ ريقي وقلت:

– ولماذا تهتم بهذه الدرجة؟أنت أمريكي،لا تكترث حتى لمسيحك.

قال:

– ولا أكترث لك ولا لها، المهمة فقط هي كل ما نسعى له.

أشرت بالموافقة، وأكملنا شرب الشاي الإنجليزي، ثم صعدنا كلٌّ إلى غرفته.

كنت قد نمت كثيرًا من قبل فلم يغمض لي جفن إلا فجرًا، كنتُ أفكّر فيما قاله لي.

لماذا نولد وفي قلوبنا كُره ليس لنا ذنب فيه؟.. ما ذنبي أن أمي قد هاجرت من العراق أو اليمن أو حتى النمسا إلى إسرائيل؟.. وما ذنبها أنها وُلدت مسلمة؟ أيُّ رب هذا الذي يفرّق بين قلبين أعجبا ببعضهما البعض لمجرد أن طريقة عبادتي له تختلف عن طريقتها.

أيٌّ من الأنبياء أقرَّ بهذا؟ أيٌّ منهم أقرَّ أن نكره بعضنا البعض؟ أنا لا أعرف عن محمد الكثير، ولكن أشكُّ أن يكون نبيًّا وقال أن يكرهونا.

ظللتُ أتذكر كل هذا، وأنا أُحاول النوم حتى ذهبت فيه.

استيقظتُ على هاتف الغرفة يئنُّ كمن راح ينذرني بالمكالمة حتى تشقق ريقه، رفعت سماعة الهاتف وكان صامويل يذكّرني أن ميعاد الطائرة قد أوشك على الاقتراب وأن عليَّ أن أتجهَّز.

وفي خلال ساعة ونصف من التجهيز والأوراق والمدونات والمناهدات عند الاستقبال كنا قد استقللنا الطائرة في طريقنا إلى العراق.

ويا ليتني ما ذهبت! فما ينتظرنا لم يكن ليتوقعه أحد.

***

الدكتورة ليلى الشمري

ها قد وصلنا العراق، هذه الدولة العريقة التي لطالما قرأتُ عنها ودرستها، أه يا إلهي! ما هذا الدمار الذي قد طالها؟

آثار نيران الأمريكان، وبعدهم القاعدة ثم الجبهات، والمنظمات مُرورًا بالأكراد والسنة ثم داعش، كل منظمة وكأنها قد وقّعت بطلقاتها ونيرانها ودمائها على هذه اللوحة المسماة العراق.

لقد طالها التدمير فعلًا، حتى إن الصحراء تجد فيها آثارًا للدماء، أين القِباب والمساجد التي تُشتهر بها بغداد؟

أين أنت يا علي؟ أين الحسين؟ أين الحسن العسكري؟ أين الباقر؟ أين أئمتُك يا عراق؟

كنتُ أنظر من الطائرة فلا أرى إلا الأسلحة والدماء والدخان المتصاعد والصيحات التي لا معنى لها، لا أرى إلا قبائل تُهاجِم بعضها البعض كما كان في حرب البسوس، ولكن بأسلحة متطورة نسبيًا.

كان المشهد عند الهبوط حادًّا جدًّا، فقد كان هناك مَن يُجرجر بعض الأهالي، ويسحلهم في الصحراء، أصحاب الذقون الطويلة والجلابيب المقصّرة كانوا متحفظون بأسلحتهم، والأهالي يُسحلون، أما ما رأيناه جليًّا كان قصفًا بمعنى الكلمة، هناك أشلاء تطايرت بعد انفجار قريب جعل بطوننا تنقلب رأسًا على عقب مِن هول المشهد والأشلاء المُتطايرة والجلود والجثث، شعرتُ بالعصارة ترتفع لتصل إلى حلقي.

نظرتُ إلى يعقوب بجانبي فقال:

- هنا سبانا "نبوخذ نصر"، وهنا "وُلد إبراهام"، وهنا وُلد "يعقوب بن إسحاق"، وهنا خرج أنبياؤنا ليهدونا، ليرجعونا إلى أرض الميعاد، هنا "إليسع وإلياس، وذو الكفل، وصموائيل، ويشوع، وحزقيال، ودانيال، ويوئيل"، فليباركك الرب يا أرض خلاصنا.

كان يؤدي حركة توراتية أعرفها جيدًا، وهي الإتيان برأسه جيئةً وذهابًا، وهي حركة تدل على خشوع صاحبها في الدعاء والمُناجاة.

أما صامويل فكان يرسم الصليب على صدغه ويقول:

- بسم الأب والابن والروح القدس، فالتكن مشيئتك.

أما أنا فكنتُ أدعو الله وأقرأ ما تيسر من سورة مريم، هذه السورة المُحببة إلى قلبي دومًا.

نظر لي صامويل وقال:

- أهذا قرون؟

قلت مصححة:

- قرآن.

سألني:

- وماذا تقرئين يا دكتورة؟

قلت:

- أقرأ ما معناه أن الله لا ينبغي له أن يتخذ ولدًا سبحانه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون.

قال:

- إذن أنتِ تقولين إن المسيح رجل وليس الرب المُتجسِّد؟

قلت:

- لكل منا معتقداته، ولو كل شخص منا اهتم بنفسه ومعتقداته وتعليماتها وتشريعاتها فقط لما حدث مثل هذه المذابح،

قال يعقوب وقد تدخّل في الحوار:

- أظن أنكِ أبعد ما تكونين عن هذه المعاني، فكل ما نراه الآن "أشار إلى الخارج" هو من أفعال تعاليمكم.

قلت:

- جهلك بتعاليم الدين الحنيف ليس مُبررًا لك لتحكم، عليك أن تعرف أولًا وتقرأ جيدًا ثم تتكلم، ثم مَن أنت لتتكلم، أنت وأهلك اغتصبتم أرضنا.

قال صامويل، وقد تدخّل بعصبية:

- يعقوب وليلى، ألن تكفوا عن هذا الصراع القبلي؟ نحن بصدد مهمة ونحن فريق واحد أرجوكم كفّوا عن هذا.

صمتت وصمت يعقوب، آه، لكم أكرهه!

هبطت الطائرة في قاعدة عسكرية تابعة للجيش النظامي الموالي للحكومة، وهبطت الطائرة الأخرى التي تقلُّ الجنود التابعين للمنظمة، وكان في استقبالنا عسكري عراقي مُهمٌّ جدًّا يُدعى "وليد العاقل" كما أشار لنفسه عند استقبالنا.

كان رجلًا ودودًا جدًّا لا تُفارق الابتسامة ثغره، عيناه تشعان ذكاء وفطنةً، يشبه العرب جدًّا حتى وإن كنت تشعر بأنه سيحمل سيفًا ويقول: "إلى الجهاد يا عمر"، كما كان يفعل أسلافه عند فتح الدول الأوروبية.

قال في وُدٍّ:

– أهلًا أهلًا بالعلماء، لقد كنا في انتظاركم منذ البارحة، أرجو أن تُريحكم نظافتنا فقد أوصيت بتنظيف الوحدة كلها.

ضحكتُ، وقلت:

– وقبل مجيئنا هل كان الذباب يتغذى على رائحتكم؟

قال وقد فهم الدعابة:

– الذباب قد هاجر إلى الدول المجاورة سيدي، حتى الذباب لم يقوَ على المقاومة.

قلت:

– مقاومة مَن؟

قال مداعبًا:

– رائحتنا بالطبع هاهاها.

نظرتُ بجانبي لأجد صامويل، ويعقوب يتابعان المكان، أكثرهما تركيزًا وقتها كان يعقوب، وهذا أدهشني، فصامويل من المفترض أنه هو مَن يتولّى الحراسة وليس يعقوب.

بعد الضحكات المُفتعلة والمجاملات، قادنا وليد إلى غرفنا، وقاد البقية من العساكر والضباط إلى حجراتهم.

هو معسكر، وليس فندقًا فلا أتوقّع أن أبيت ليلتي في جناح يطل على الفرات، ولكن يبدو أنهم بالفعل كانوا يهتمون بالرحلة إلى أقصى

حدٍ، حتى أن الشك زاودني، هل هي رحلة أثرية فعلًا؟ كل هذه المصاريف، والاهتمامات حتى بالتفاصيل الصغيرة لا تدل إلا أن المنظمة تريدنا أن ننقل شحنة من الألماظ أو الهيروين، ثم هناك شيء لم أُلقِ له بالًا حتى وقت كتابة هذه السطور.

لماذا هذا التنوُّع في الجنسيات؟ لماذا عربية وأمريكي وإسرائيلي؟ ولماذا العراق؟ فالتنظيم الإسلامي قد دمّر آثارًا في سوريا واحتلَّ المسرح الروماني، لماذا العراق إذن؟ ولماذا روسي يكون هو رئيس المنظمة؟ ولماذا شهاداته النفسية أكثر من العسكرية؟ ولندن؟ غريب فعلًا.

حسنًا، الذي جعلني أفكّر في كل هذا هو عندما رأينا حجراتنا في المعسكر.. لقد كانت قصور صغيرة بمعنى الكلمة، أبواب مضلّعة كالسجن أو المعتقل فعلًا، ولكن عندما تتقدَّم إلى الداخل تتفاجأ.

فالسقف مثلًا مزين بلوحة أثرية، وليس ببعيد أن تكون بريشة جوخ، فهذه الألوان وهذا التنوع لا ينمُّ عن غيره أبدًا، لا أحد في عبقريته ومأساويته ورجاحة عقله يقدر على الخروج بهذا الإحساس، لا أحد يصوّر النجوم المُتلألئة في السماء سواه، ولم يكن هذا كل شيء، فهناك في كل غرفة ثلاجة كهربائية مليئة بالمؤن واللحوم، حرارة الجو كانت مضبوطة جدًّا، لا هي باردة ولا هي ساخنة، فقط منعشة، الأسرّة منمقة محشوة بالريش، ليست هوائية كالتي يستعملها الأفراد العسكريون.

هناك هواتف خلوية، هناك إنترنت، هناك كل شيء.

قلت مندهشة لوليد:

– يا إلهي! هل هذا مخبأ صدام حسين بنفسه؟ هل وجده الأمريكان هنا؟ ما كل هذه الفخامة؟

قال وليد وهو يغمز بعينه اليسرى:

إنهم يدفعون جيدًا سيدتي.

"أشار بأصابعه بما معناه نقود كثيرة".

قلت:

– وهل حجرات باقي الفريق بهذه الفخامة أم لأني سيدة وحيدة؟

قال:

– كلكم نفس مستوى الغرف سيدتي، ولكن لك أنتِ شيء مميز، لك فقط.

وأشار لي لأتبعه.

ذهب باتجاه ما يُشبه دورة مياه خاصة بالغرفة التي أقبع فيها، وكان ما رأيت هو الجنة.

قال لي:

– علمتُ أنكِ دكتورة في التاريخ، فاخترتُ لكِ هذا.

فتحت ثغري في دهشة، ما أراه لا يمكن أن أتصوره أبدًا.

هو تقليد تام لمسبح كليوباترا، بزهوره ومياهه المُتدفقة الساخنة والموسيقى وحتى إنهم لم ينسوا الإتيان بفتيات للتدليك، والاستجمام.

قال:

– هاتان البنتان هما تحت طوعك حتى انتهاء الرحلة، هذه سالمة وهذه غادة.

قلت:

– عذراوتان؟

غمز بعينه وابتسم.

– آه يا إلهي! إنه حلم، ولكن لن أقبل كل هذا.

فتحت فمي لأرفض كل هذا البذخ، فأوقفني قبل أن أُكمل وقال:

– لقد دفعوا مقابل كل هذا لا تقلقي، فقط استمتعي، فأمامنا غدًا يوم شاقٌّ.

قلت:

– ولكن هذا كثير.

قال:

– السير نيكولا قد أوصانا، لا نستطيع أن نرفض، ولا تقلقي بالسيد يعقوب والسيد صامويل يقابلان ما يدهشهما أيضًا.

وافقتُ على مضض، الصراحة كنتُ متفاجئةً ومستمتعةً في نفس الوقت، فالحقيقة أني لم أُقابل في حياتي اهتمامًا مثل هذا، طول الوقت عمل، وقبلها هجرة ومُضايقات وتحرُّشات، لهذا قبلتُ.

نظرت بجانب مضجعي فوجدت الكثير من الورق والأقلام.

قلت له قبل أن يرحل:

- ولماذا كل هذه الأوراق إذن؟

قال:

- ستحتاجينها سيدتي، ثقي بي.

ثم غادر.

كنتُ بحاجة إلى الراحة بعد سفر شاقّ وقلة نوم، كنت جائعة أيضًا، لم أنتظر طويلًا فقد وجدتُ من يقرع الباب، فتحت فإذا به أحد العساكر ويحمل معه الكثير من الطعام، لحوم وأصناف من المُقبلات كما لو كنتُ أميرة، وبعض المشروبات المثلجة والساخنة، ما كلُّ هذا؟ لا أعلم.

قمتُ بتغيير ملابسي، نظرتُ جيدًا على الجدران تحسُّبًا لوجود كاميرا ما هنا تُراقب، ثم دخلتُ لآخذ حمامًا ساخنًا.

كانت أكثر لحظاتي إمتاعًا خصوصًا عندما قامت الفتاتان بتدليكي بالزيت، وتسخين الفحم، كما لو كنتُ ملكةً فعلًا.

أنا لا أعرف ما الذي يفعله زملائي، ولكني شعرتُ بأني أكثر امرأة محظوظة في التاريخ، لها حق كليوباترا أن تنتحر بعد سقوط مملكتها، فمن يخسر كل هذا إما يُجن أو يقتل نفسه بسُمِّ الكوبرا كما فعلت.

كانت ليلة مليئة بالأحلام، كنت أحلم بكل شيء، على ما أتذكر رأيت أمي قلقة في منامي، ورأيتُني أحاول الخروج من الحجرة فلا أستطيع، بالطبع كانت ملامح الغرفة قد تحولت إلى ما يُشبه الكهف.

رأيت أيضًا السير نيكولا بابتسامته المعهودة وشعره الأبيض، يُشير لي ولزملائي، ثم يختفي فجأة فلا أرى إلا الظلام، فقط ظهر لي يعقوب، فتح فمه فإذا به يُخرِج صوتًا يُشبه صوت الهاتف.

هاتف؟

استيقظتُ مرعوبةً على صوت الهاتف، لقد تداخل مع الأحلام إذن.

رفعتُ السماعة.

أنا:

– ألو؟

وليد:

– سيدتي، صباح الخير، الفطور سيكون جاهزًا في الرُّدهة ثم ستبدأ الرحلة.

أنا:

– حسنًا يا وليد لن أتأخر.

ووضعت السماعة.

تُرى كيف ستكون الرحلة؟

***

الرقيب صامويل فرانكلين

صوت تشويش – لم أستطع النوم هذه الليلة أيضًا، فقط غفوتُ قليلًا لتراودني الكوابيس، بحق المسيح هي كوابيس صعبة، تراودني منذ كنتُ في العراق آخر مرة.

أرى في منامي هذه الأسرة التي قتلتها وهي تركض ورائي تريد الاقتصاص، أرى ليلى تُسدل شعرها فيتحول إلى مروج من الذهب، ثم يظهر يعقوب وقد تحوَّل إلى جرذ فعلًا ليقضم قدمي.

لا لم أستطع النوم مطلقًا، وكانت ليلة صعبة فعلًا، في العادة أنا لا أُدخن بكثرة، ولكني أحتاجها عندما أكون متوترًا، وقلّما أتوتَّر.

في هذه الليلة توترتُ فعلًا، أنا لا أعرف ما أنا ذاهب إليه، ولكني أتوقَّع أنها لن تكون رحلة سهلة.

ما أعرفه أن منظمة ليست غنية مثل حقوق الإنسان لا تدفع بهذا البذخ إلا إذا كان هناك شيء آخر في انتظارنا، لا أبالغ إن ثم رمينا قرابين لأحد آلهتهم.

ولكن، لا، هم مسلمون هنا.

أخذتُ سيجارًا مما وضع بجانب سريري وقمت بإشعاله بهذه القداحة الذهبية، ما كل هذا البذخ أنا لا أعرف.

أخذت جهاز التحكم عن بُعد، شغَّلتُ التلفاز، تلفاز عملاق فعلًا، ما أدهشني أكثر أنه موصل بأكثر من قمر، أستطيع مشاهدة قنوات فوكس الأمريكية المشفّرة من هنا.

كانت ليلة صعبة، انتظرتُ حتى بدأت الشمس بالسطوع ثم غادرتُ حجرتي.

جلستُ بالخارج بجانب الحجرة أتأمل الصحراء التي نحن بها، أشتاق إلى زوجتي وابنتي، وإلى معسكري، العودة إلى هنا لم تكن سيئة كما توقعتُ، ولكنها تُعيد إليّ ذكريات لا أريد استعادتها مطلقًا، جثة ديفيد مثلًا ونحن نجمع أشلاءها، صوت صراخ المجاهدين في أبي غريب، سارة التي اغتُصبت في المعتقل لأكثر من مئة مرة، أشلاء الأطفال.

سيدي يسوع المسيح، ساعدني لأنسى كل هذا بحقك.

جاء صوت من الخلف يُشبه الجرذ كعادته يقول لي وأنا سارح مع ذكرياتي وأفكاري:

– لم تستطع النوم أيضًا؟

قلتُ:

– ليس هذا من شأنك.

قال:

– صامويل، عليك أن تتقبلنا شئتَ أم أبيت، هذه الرحلة مدهًا أسبوعين، وعلينا أن نتعايش حتى تمر بسلام.

قلت:

– وماذا عساني أن أفعل إذن؟ أرقص لك؟

قال وقد أشعل لفافة تبغ:

– لا، ولكن على الأقل تقبّلنا.

قلت:

– لا أريد أن أتقبّل أحدًا، لا تخف لن أؤذيك ولكن دعني وشأني.

لم يكترث وقال:

– أنا سعيد جدًّا بالعودة إلى أرضنا هذه.

قلت:

– أرض من هذه العراق يا يعقوب؟

نظر لي ثم قال:

– ألم تسمع عن الحلم الصهيوني مِن قبل؟ أرضنا هي من النيل إلى الفرات يا صاحبي.

قلت:

– ومن أعطاك الحق في هذا إذن؟

قال:

– الربُّ، حتى أن مسيحك قد قال هذا.

قلت:

– متى قال؟

قال:

– راجع إنجيلك يا أيها الرقيب.

قلت:

– أبي كان كاهن كنيسة الولاية، ولم أسمع مطلقًا بأن المسيح قد وعدك بالعراق من قبل.

ضحك ثم قال:

– حسنًا، ما أعرفه أن دانيال قال: "الواحد القدوس تبارك اسمه قاس جميع البلدان بمقياسه، ولم يستطع العثور على أية بلاد جديرة بأن تمنح لجماعة يسرائيل سوى أرض يسرائيل"، وأنت تؤمن بوعد الله لإبرام.

قلت:

– لا يهمني كل هذا، أنا أمريكي، وأرضي هي أمريكا.

قال:

– هي لك إذن ولكن اتركني لأحتفل بالعودة بالله عليك.

صمتُّ، فلو زدتُ في كلامي لبدأ الحديث عن المحرقة ثانية، وقد ضقتُ ذرعًا بها، نعم أنا أشفق على هتلر الآن فقد كان له كل الحق في حرقهم.

قال:

– قل لي يا صامويل، لماذا أنت هنا؟

قلت:

– سأعيدها على مسامعك.. لتأمينكم.. وغير هذا هو ليس من شأنك.

قال:

– حسنًا، أنا هنا في مهمة أيضًا، ولن أقولها لك، ولكن فلتعلمْ أنني أعلم منَ تكون أنت، ولماذا أنت هنا، وأنا هنا لمساعدتك في استعادتها.

قلت:

– وإذا كثرت في الكلام سأحرقها.

قال وقد تبدّلت ملامحه:

– كم أنت صعب يا هذا، أصعب منالًا من هذه المسلمة، أراكَ لاحقًا.

أطفأ لفافة التبغ بجانبي ثم تركني ورحل.

ظللت مكاني حتى استدعوني للفطور، كان الفطور شائقًا فعلًا، مجموعة من الوجبات التي تناسب حضاراتنا كلها، فقدّموا لي اللحم المُقدَّد والبيض وزبدة الفول السوداني، ولليلى بعض الفول والفلافل والبيض والخبز الأسمر، أما يعقوب فقد كانت الفلافل الشامية والخبز السوري وبعض العدس.

كنا مستمتعين فعلًا بالمعاملة المميزة، أفطرنا ثم توجهنا إلى الطائرة التي ستُنقلنا.

ما تحته وأثار ريبتي أن ليلى كانت تحمل الكثير من الأوراق والمياه والأقلام وهو لشيء غريب، أما يعقوب فكان يحمل بعض الأوراق أيضًا والكثير من الطعام والمُعلبات، والتبغ وأكثر من قداحة.

قلت:

– هل نحن ذاهبون سيرًا على الأقدام؟ لماذا كل هذا؟

قال يعقوب:

– لربما احتجناهم أيها الذكي.

أنا لم آخذ الكثير، فقط كاميرا، وجهاز تسجيل، والكثير من البطاريات وبعض المياه، أنا مجهّز للبقاء بالطبع.

صعدنا إلى الطائرة المتجهة إلى نينوى شمال العراق، مدينة قريبة جدًّا من الموصل، بل إنها جزء من الموصل، كنا نَظنُّها على حدٍّ علمنا في ذلك الوقت أنها مدينة هادئة أثرية، لم نكن نعلم أننا على موعد مع "أسد الله البيلاوي"، أو غزوة ولاية نينوى.

وصلنا من بغداد إلى الموصل في ساعتين، المسافة هي قرابة الثلاثمئة ميل، لم تكن رحلة شاقة فعليًّا، كانت طائرة مجهزة، وطائرة أخرى تقلُّ باقي أفراد الجيش التابعين لنا.

كانت ليلى تنظر بشغف من نافذة الطائرة لتشاهد التلال والجبال الخضراء وتقرقر كالقط، نعم هي مستمتعة جدًّا فمن الواضح أنها

لطالما أرادت زيارتها، وكذا فعل يعقوب، الإكثار عن حديثه عن بابل والعراق يجعله فعلًا متشوقًا.

أنا فقط من كان يتحاشى النظر، والاستمتاع، لقد كنتُ هنا من قبل، ولا أشعر براحة كلما تذكّرت الحرب.

ذكريات لا تُمحى بسهولة.

قالت ليلى كمن تقمّص دور الدليل:

– مدينة نينوى الأثرية، يا الله، هي جزء من الموصل.

قال يعقوب:

– ومهد الحضارة البابلية، وهنا قُتل وسُبي جدي وجدتي.

تنفّستُ الهواء في اشمئزاز وضجر، فقالت ليلى:

– وهنا بشّر دانيال بالمسيح يا صامويل.

قلت:

– لا أكترث حتى وإن تجسّد المسيح هنا، هي أرض مثلها كمثل كاليفورنيا.

قالت:

– ولكن كاليفورنيا ليس بها دجلة.

"وأشارت إلى النهر".

قلت: - لا أكترث.

قال يعقوب:

- جد المسيح كان هنا وسُبي أيضًا.

قلت وقد بدأتُ أغضب:

- وسأسبيك أنت وجدك إن لم تصمت!

صمتَ، وأخذ يُداعب حقيبته وتحاشى النظر لي.

قالت ليلى:

- هَدِّيء من روعك يا صامويل ولنستمتع...

عندما هبطنا، كان في انتظارنا صحفي أمريكي يُدعى بيل، يرتدي الصديري المشهور بالصحافة، وواقي الرصاص، وكان متوترًا جدًّا.

قابلته ومعي وليد وبعض العساكر، وعرّفته بنفسي.

قال:

- اخترتم أسوأ يوم للمجيء.

قلت:

- ولِمَ؟

قال:

- نحن نهرب الآن، ألا تعرف لِمَ؟

قلت:

- لقد وصلتُ لتوِّي الآن، قل لي ماذا يحدث؟

قال:

- المسلمون على مشارف المدينة، سيحتلونها.

قلت، وقد ابتسمتُ:

- لا تقلق سنتولَّى أمر هؤلاء الرعاع، بعض المسلحين لا يشكلون خطرًا علينا.

قال:

- لا تستهِنْ بعدوك يا أيها الرقيب، هم جيوش كثيفة، وليسوا أربعة ملتحين.

قلت:

- لا تقلق، اذهب أنت.

أشار لي بالموافقة ثم ذهب، واتجهنا نحن صوب المكان.

كانت وجهتنا تشمل معبد أسد آشور، ثم جبال نينوى، ثم العودة للمبيت في فندق ما بالموصل، ولكننا لم نصل قط للفندق.

المهم، وصلنا إلى المعبد، وهنا كانت ليلى تبكي حرفيًّا، فما رأته ليس بالطيب.

يعقوب يهديء من روعها، وأنا أُحاول تهدئتها.

ما رأيناه عندما دخلنا هي بعض الحجارة المهشّمة وبعض الجثث المعلقة، مشهد يليق بالعصور الوسطى فعلًا، المعبد سار خرابًا، ولا تمثال واحد سليم، ها هو تمثال "أو ما تبقّى منه" للنمرود الأول، سار ركامًا، ماذا أصاب المعبد؟ سار أسوأ من سدوم وعمورة.

قال يعقوب:

– الهمج! ألا يعرفون إلا التكسير والتهشيم؟

قلت:

– مجرمون فعلًا، فنحن دخلنا العراق ولم نخربها هكذا.

قال يعقوب:

– لا يقوى أحد على تهشيم الحضارة بهذا الشكل إلا المخابيل، رُحماك يا رب.

توغّلنا أكثر، وأنا آخذ بعض اللّقطات بالكاميرا، والعساكر بالخارج يؤمنون.

قالت ليلى بصعوبة وسط دموعها:

– من المفترض أن هنا كان مرقد آشور العظيم نفسه، ها قد سار حصًى.

قلت، وأنا أحمل بعض الزمال وألقيها:

– لقد ساروا ترابًا.

قال يعقوب، وهو يتفحّص إحدى القواعد:

– مَن كان يظن أن تتحوّل العراق ليصير أطلالًا؟

تركتُهم وابتعدت قليلًا.. كنت أتفحص الحوائط التي من المفترض أنها كانت محفورة بالكتابات البابلية والمسمارية، تم كحطهم بفعل فاعل، مجرمون فعلًا.

انتهت الرحلة سريعًا على خيبة أمل، لا شيء ليتم إنقاذه خلال هذه الأنقاض، المكان سيئ جدًّا.

اقترحت أن نغادر لنبيت في الفندق، ولكن ليلى قالت:

– علينا أن نبحث أكتر، أقترح أن نُكمل مسيرتنا في اتجاه الجبل.

قلت:

– هذا خطر، أنتِ سمعتِ التحذيرات بنفسك، هناك خطر قد يُداهمنا.

قال يعقوب:

– أنا أرى أن نذهب فقد خاب أملُنا فعلًا.

قالت ليلى:

– لا، فلنكمل المسيرة فربما نجد شيئًا ما ما زال كاملًا، لا نعرف هل ستصبر علينا الجماعات أم لا.

قال يعقوب:

– إذن فلنكمل رحلتنا هي على حق.

قلتُ بغضب:

– يعقوب أيها الجرذ، أليس لك رأي أبدًا؟ حتى أنبياؤكم لم يخلوا من ترددكم هذا؟

قال وقد تصبب عرقًا:

– لا همني ولا همن إسرائيل يا صامويل؟

قلت:

– وماذا ستفعل إذا لم أتوقف؟ ستضرب الأرض بعصاك فينشق نهر دجلة؟

قال وقد بدأ يتوتر:

– إذا سمحت أيها الرقيب، الأمر لا يحتمل مهاترات الأمريكان الآن.

قلت:

– ألا تُعجبك أمريكا ومهاتراتها الآن؟ لماذا يعيش فيها عمُّك وأقاربه إذن؟

قال وقد بدأ يغتاظ هو أيضًا:

– ومَن لا يعجبه الوهم؟ أووو لا توجد عربة نقانق هنا أيها الكسول، أوو لن تحتسي الجعة إذن.

كان يستفزّني.. لا أعلم لماذا، ولكنه نجح في استفزازي بالفعل.

قلت وأنا ذاهب لألكمه:

– فلتتذوّق قبضتي إذن فهي ساحرة، تُسكر تمامًا كالجعة.

كدتُ ألكمه في أنفه فينكسر كما كنتُ أتمنى منذ بدأنا الرحلة، ولكن ليلى أوقفتني وقالت:

– ألن تكفّوا عن عِراك الأطفال هذا؟ نحن كِبار وفي مهمة عالمية، ولسنا هنا لنلهوَ، كفّوا عن هذا.

ابتعدت قليلًا، وقلت:

– حسنًا، ولكن لن أشارك هذا اليهودي المسيرة.

قال موجِّهًا كلامه إلى ليلى:

– ابتعدي عنه، فأنتم المسلمين لا تأكلون الخنازير.

نفستُ عن غضبي وقلت:

– هذه هي، ثم صفعته.

صرخت ليلى:

– إذا لم تصمتوا سأصرخ أنك مسيحي، وأنه يهودي، وقابلا مصيركما مع داعش.

صمتُّ وقررت المواصلة في صمت، وكذا فعل يعقوب.

لكم أكرههما..

وصلنا الجبال، ويا ليتنا لم نصل قط.

***

الصحفي يعقوب جريفمان

إنها هذه العربية البربرية المتخلفة، هي السبب في كل ما آل إليه الأمر، إن لم تصرّ على استكمال هذه الرحلة الحمقاء لكُنَّا في الفندق الآن، ولربما كنتُ في إسرائيل أحتفل بعيد الفصح مع الأقارب والأصدقاء.

لكم أشتاق لأرضك يا وطن، أشتاق للجلوس على رمالك أُشاهد البحر بلا ملل، أشتاق إلى وظيفتي وأهلي ومديري الذي كنت أكرهه، أشتاق إلى صوت عوفرة حازة الملائكي وهي تنشد "فلتحيَ إسرائيل "..

كل هذا قد ذهب، كل هذا قد فنيَ بالنسبة لي لمجرد حماقة هذه البربرية، لماذا لم أرفض وقتها؟ أنا لا أعلم.

عندما وجدنا الخراب الذي آل إليه المتحف، صدمنا جميعًا، كنت أتوقع أن أجد ولو حتى تمثالًا أو قلادة أو أي شيء، كل شيء قد سار ترابًا.

هؤلاء السفّاحون قد دمروا كل شيء، حتى الجدران الأثرية قد دمروها.

كنا قد قررنا الرحيل وإنهاء اليوم حتى اقترحت هذه الحمقاء أن نكمل مسيرتنا لمنطقة الجبال الأثرية.

نعم كنتُ أريد أن أراها وأدعو الله بالمغفرة وأتذكر أنبياءنا الذين سُبوا هنا، ولكن هل كان هذا هو التوقيت المناسب؟

بالطبع أي طفل وقتها كان سيرى أنه من الحكمة أن نؤجل الرحلة، فالهمج على وشك احتلال المدينة ونحن في خطر.

إن إعدام "معاذ الكساسبة" بالنار يُداعب عقولنا كلها، قد يكون هذا مصيرنا إذا ما استمررنا في رحلتنا، ولكن شيء ما بالرغم من كل شيء كان يجبرنا على الاستكمال، ربما واجبي نحو وطني، وربما الشعور بالمسئولية التي وُكلت إليّ.

على العموم كنتُ قد وافقت ليلى عندما اقترحت الاستكمال، ولكن ذلك الرقيب اعترض وبشدة، وهذا أدى إلى تدخلي وسبه هو وعائلته.

لم يجرؤ على الرد وقتها، فرؤسائي يستطيعون سجنه بكل سهولة كما فعلوا مع أدولف آيخمان من قبل، بالرغم من أنه كان الرجل الثاني بعد هتلر ولكنهم فعلوها.

نعم نحن نحكم العالم إن لم يكن فعليًا فاقتصاديًا، وإن لم يكن فبوحدتنا وانتشارنا في كل الهيئات والحكومات، تعيش إسرائيل،

حسنًا، وصلنا المنطقة الوعرة ومن خلفنا الجنود الموكلون بالحماية، هم تحت طوع الرقيب صامويل بشكل كامل، نعم هو خنزير أمريكي ولكنه قائد بالفطرة، بناؤه العضلي ونظرة عينيه الثاقبة تتحدثان عنه.

عندما وصلنا قالت ليلى لي:

- يعقوب، ألم تذكر لنا كعادتك عن تاريخ اليهود هنا؟

قلت:

- لا، هذا الرقيب لا يستحق أن يتعلم عنا.

قال صامويل:

- لا تذكُرْ اسمي على لسانك وإلا قطعته لك.

قلت:

- نحن في بلد حر، ولا تحكمني سلطة فيدرالية هنا، لي مطلق الحرية أن أقول أي شيء.

قالت ليلى:

– حسنًا سأقول أنا، هنا في هذه المنطقة بالذات "وأشارت إلى جبل أخضر"، وصل نبوخذ نصّر على عربته الذهبية يرتدي التاج الشهير، ومن ورائه آلاف اليهود مكبّلون أيديهم إلى أرجلهم في خط مستقيم، ومن حولهم الجنود يجلدونهم كالأنعام،

ثم أشارت إلى مجموعة من الكهوف وقالت:

– وهنا تم اقتياد النساء وهن عرايا ثم تم تقسيمهن على القادة والجنود، وهنا كان اغتصاب جماعي، وهنا...

قاطعها الرقيب وقال:

– ألا توجد أي إيجابيات أو قصص مفرحة لليهود أبدًا؟

قالت ليلى وقد ابتسمت قليلًا:

– في الحقيقة لا، فالتاريخ لا يذكر النكات سيدي.

قلت للرقيب:

– حتى تعلم سيدي كيف عانينا على مر التاريخ.

قال:

– ولكن بلفور قد عوَّضكم بعدها.

قلت:

– إسرائيل محاصرة بالأعداء صامويل، نحن لا نعرف الراحة.

قالت ليلى:

– أرجو أن نتناسى السياسة قليلًا حتى نكمل رحلتنا على خير ووفاق.

قلت:

– حسنًا لكِ هذا.

توغلنا أكثر قليلًا، وكانت الشمس قد بدأت في الغروب قليلًا، كانت ليلى تنظر بشغف إلى بعض الكتابات الآشورية على جدار كهف ما، وكانت تمهمه كمن يكتب الشعر، كانت تشعر بالإثارة، فأنا أظنّ أنها لأول مرة ترى الآثار على الطبيعة وليست صورًا مطبوعة في المجلدات والأبحاث.

نظرتُ خلفي فوجدت الرقيب صامويل ينشر الجنود بطريقة احترافية، اثنين جنوبنا واثنين شمالنا وثلاثة يصعدون الجبل واثنين بقربنا والآخرين يُؤمِّنون الطريق.

الخبرة العسكرية مطلوبة فعلًا في مثل هذه المواقف الصعبة، وأنا بالرغم من الخلاف مع صامويل فإني أكنُّ له الاحترام لعمله الصعب، فأنا كنتُ في الجيش وأعلم كم المسئولية التي يواجهها هو الآن، انتهزت فرصة أنني وليلى وحدنا، اقتربت منها بحذر شديد جدًّا فأنا غير مُستعدٍّ للمفاجآت.

قلت:

– دكتورة ليلى، هل تسمحين لي؟

قالت:

– تفضل يا يعقوب.

قلت:

– أريد.. أريد أن أعتذر عما بدر مني تلك الليلة، تأثير الخمر مريع فعلًا، وأنتِ جميلة و...

قالت:

– أنا من يجب أن يعتذر، فقد تصرّفت بحماقة شديدة.

قلت:

– أنا فعلًا معجب بكِ يا دكتورة وهذا لأنك فعلًا جميلة، وشخصيتك ساحرة، ربما إن كنتُ عربيًّا لكنت تزوجتُك حالًا.

قالت وقد احمرت وجنتاها:

– ومن قال لك إنني سأوافق؟

صمتتْ كمن صُفِعَ على خده فجأة ولم أستطع الرد.

ابتسمت ثم قالت:

– إنني أمزح.

تنفّست الصعداء وابتسمت بدوري، فأضافت:

– يعقوب، نحن هنا نعمل، لسنا هنا نتواعد ونحب بعضنا البعض، علينا أن نُركّز.

نظرت لها ثم قلت:

– أعلم يا ليلى، ولكن مشاعري س...

فجأة، قاطعتنا أصوات تهليل وتكبير، وطلقات قادمة من بعيد باتجاهنا،والرقيب صامويل يركض خلفنا ويصرخ:

– اجروا إنهم قادمون.

لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أُطلق العنان لقدمي لأتوارى خلف أي صخرة، والجنود من خلفنا يشكلون ساترًا ويلقمون أسلحتهم استعدادًا للمعركة، هناك جندي قد أدار السيارة الجيب التي جئنا بها ليقف بها أمامنا كساتر، كانت الإشارة التي اتفق عليها الرقيب وقت الهجوم هي التصفير.

وكان المكان يعجُّ بأصوات التصفير، يبدو أنهم قد جاءوا من كل مكان إذن.

– يا ربي ما هذا!!!!؟

"صرخت بها ليلى"..

قلت:

– انبطحي أيتها الحمقاء ولتدعي ربك ألا يرونا.

مرت لحظة واحدة ثم وجدنا جنودنا يوجهون أسلحتهم في كل مكان ثم يطلقون الأعيرة المتعددة بلا توقُّف.

أصوات التهليل البربرية تأتي من كل مكان، وأصوات الانفجارات.

تراجع الرقيب صامويل وهو يلقّم رشاش آليًّا ويرتدي شريطًا من الطلقات النارية، ثم توارى خلف السيارة وانتظر.

أصوات الضرب كانت مُرعبة، يبدو أنهم كثيرون فعلًا، السيارة الأخرى التي كنا قد أتينا بها وكان بها القائد العراقي قد انفجرت، ويبدو أن ذلك العراقي قد قُتل.

كنتُ أقرأ المزامير وأدعو الله أن ينقذنا كما أنقذ موسى من قبل، ويبدو أن صامويل كان يرسم صليبًا على صدره، أما ليلى فقد رفعت يديها إلى السماء وهي تتلو شيئًا ما.

أصوات الطلقات تستمر ونحن نتراجع، سقط أول جندي من جندنا وهو مثقوب كالقِربة، صرخة أخرى أتت على مَن كان فوق الجبل فسقطَ فوقنا جثّة هامدة.

صوت انفجار آخر يُودي بحياة اثنين من الجنود، ومن أمامهما نرى أكثر من عشر سيارات فوقها مدافع تطلق بلا توقُّف، كان أشبه بيوم الدينونة، كنتُ مرعوبًا فعلًا، شعرت أنني إن لم أُقتَل بطلقاتهم سأموت بانخفاض ضغط الدم، كنتُ فعلًا قد بدأت بالشعور بالغثيان والدوار ولكني تماسكتُ.

نظرتُ إلى صامويل لأجده يطلق الأعيرة المتتابعة نحو أقرب سيارة لتنفجر بمن فيها، مِن خلفها سيارة تراوغ وتقترب ثم تطلق الرصاص ليصيب السيارة التي يحتمي بها صامويل، فيستلقي على الأرض وقد غطّى وجهه الغُبار وهو يسبُّ ويلعن.

جندي آخر قد سقط أمامنا والسيارات تقترب.

قالت ليلى:

– علينا أن نبتعد..

قلت بلا صوت تقريبًا:

– كيف سنتحرك وسط وابل الرصاص هذا؟

قالت وهي ترتعش:

– الكهف خلفنا فلنختبئ به.

قال صامويل وهو يُطلق الرصاص:

- هل هذا وقت احتلال يا حثالة الصحراء؟

ثم أكمل إطلاق..

قالت ليلى:

- صامويل، علينا الاختباء.

قال:

- لاااا لن أترك رجال كتيبتي وحدهم..

قالت:

- لقد قُتلوا وإن لم نتحرّك الآن سنُقتل أو نُختطف وهذا أسوأ.

قال:

- لااااااا

ثم أخرج قنبلة يدوية وألقاها على سيارتين اقتربتا جدًّا.

انفجرت لتنفجر معها السيارتان فتعتلي النيران عنان السماء.

قلت:

- لن ننجو.. لن ننجو..

قالت ليلى:

- بحق مسيحك يا صامويل علينا أن نختبئ، إلى الكهف أرجوك..

قال:

– ورجالي؟ لا فلأُقتل أفضل لي من الهروب في المعركة.

صرخ صامويل في جُنوده:

– جاااك.. هل تسمعني؟

جاء صوت قادم من الأمام:

– نعم سيدي.

قال:

– ما الإحداثيات؟

قال الصوت:

– لن نقوى عليهم سيدي، هم كثيرون جدًّا..

قال صامويل:

– تبًّا.. اضرب يا جاك..

قال جاك:

– ذخيرتي تنفد..

يبدو أن جاك، وهو آخر جندي حي قد فرغت ذخيرته، فأخرج مسدسه الشخصي وأطلق منه ثم صرخَ، ولكن نيران الجماعة كانت أقرب، وأسلم روحه إلى ربها.

قال صامويل وهو يصرخ:

– الأوغاد، سُحقًا، قتلوا كتيبتي، سأنتقم.

قالت ليلى:

- صامويل، لن تستطيع المقاومة إن لم نختبئ الآن، من فضلك.

صمت صامويل ثم قال:

- حسنًا.. سنتحرك عند إشارتي.

وافقنا، ثم أخرج هو قنبلة يدوية أخرى وسحب فتيلها، ثم أشار لنا أن نستعد.

استعددنا.. ثم قال:

- ثلاثة، اثنان، - ثم ألقاها - واحد، هيا هيا هيا..

انفجرت في سيارة أخرى فارتفعت النيران، هنا زحفنا فركضنا في اتجاه الكهف الذي من خلفنا بأسرع ما أمكننا، ركضنا هربًا من الموت.

تعثّرتُ وخرجت الدماء من ركبتي، ولكني تحاملتُ، وأكملتُ رحلتي.

الكهف يقترب، ونحن نركض، ومن خلفنا السيارات تقترب، وأصواقم تعلو.

أصوات صياحهم."الله أكبر" كان يزلزل قلوبنا، فلنتحامل يا قلبي.

اقتربنا من مدخل الكهف الأثري.. نركض ونركض محاولين الهرب، صامويل من ورائنا ومن ورائه السيارات.

فجأة قنبلتان يدويتان أُلقيتا علينا.. استقرتا عند مدخل الكهف..

قال صامويل:

– اقفزوا إلى الداخل.. هيااااا ستنفجرون.

كنتُ أنا أسرعهم فقفزتُ، وارتطمَ رأسي بالحجارة وما أحمله من حقائب لم يسقط، ولكني دخلت وتواريتُ وراء الصخور.

قفزتْ ليلى، وتوارت بجانبي وهي تتمسك بحقيبتها أيضًا.

صامويل يركض.. يركض وهو يصرخ.. يركض وهو يكتم أنفاسه.. الطلقات من حوله.

وقفز..

هنا انفجرت القنبلتان عند المدخل، صامويل يتدحرج وقوة دفع القنبلتين من ورائه كالسيوف، ونجح صامويل.

كان الانفجار قويًّا ومُدويًا، كان قويًّا جدا لدرجة أن سقف الكهف الصخري تصدّع وسقط وفوقة أطنان من الصخور ليسد المدخل إلى الأبد..

وهنا.. أغمضتُ عيني ليهدأ قلبي وذهبتُ إلى عالم آخر، ولا شيء إلا الظلام..

***

الدكتورة ليلى الشمري

لقد نجونا.. حدث انفجار عظيم وكدنا نموت منه ومن طلقاتهم، ولكننا قد نجونا والحمد لله، نجونا منهم، نعم، ولكننا حُبسنا بداخل الكهف إلى الأبد..

كان يعقوب بجانبي قد أصابه الإغماء، لقد تعب قلبه من الضغط والمجهود ومن حقه أن يُصيبه الإغماء إذن.

أما صامويل فقد أُصيب بخدوش فقط، ولكنه كان يلكم الصخور في عصبية شديدة، يقول:

"كتيبتي، رجالي، سُحقًا لهم"، حتى كاد يكسر يده من كثرة الضرب.

أما أنا فحدّث ولا حرج، كنت أبكي وألطم وجهي وأُلملم جراحي، وردائي الذي صار يكشف مفاتني.

لا أعلم ماذا سأفعل الآن، أصوات الرجال من الخارج وأصوات الطلقات لم تنته، يبحثون عنا ونحن نسمعهم بالفعل.

سمعتُ مَن يقول في الخارج:

– من يجد هؤلاء الخنازير فله جاريتان.

وأصوات الصراخ:

– الله أكبر.. الله أكبر..

أصوات البحث والضرب لا تنتهي، هم يعبثون بالخارج ويعيثون فسادًا وتدميرًا.

يا ربي هذا ليس دينك، هؤلاء أبعد ما يكونون عن تعاليمك، أنرْ بصيرتهم يا الله.. هل هم على حق أم نحن؟

كنت أبكي وأبكي وأقول:

– سنموت.. سنموت..

وصامويل لا يكف عن ضرب الصخور بيده.

ظلام شديد، عتمة كعتمة القبر، نسمع أصواتنا فقط، لا نستطيع الوقوف مفرودي الظهر حيث إن الكهف ليس مفرغًا جدًّا، وقصير

السقف يجبرك على أن تقف بظهر منثنٍ، ورائحته كرائحة الكبريت، وهو شيء لا يُبشر بالخير أبدًا.

لا أعلم كم من الوقت قد مرَّ علينا في هذه الحالة، ولكن ليس أقل من ساعتين أو ثلاث.

هدأنا، وهدأ صامويل، وبدأنا في تدارُك المأزق الذي نحن فيه.. نحن محبوسون بداخل كهف في العراق، بلا مخرج أو مُتنفَّس، لقد حُبسنا في قبرِ أبدي كقبر يونس أو أسوأ.

قال صامويل:

- نحن مُحاصَرون.

قلت:

- نعم، وما معنا من غذاءٍ ومعلبات ومياه مع يعقوب لن يكفينا شهرًا.

قال صامويل:

- ومَن قال لك إننا سنبقى شهرًا هنا؟ يوم أو اثنان على الأكثر وسنجد مخرجًا وسنخرج.

قلت:

- وحتى وإن خرجنا، كيف سنهرب مِن هؤلاء؟ ثم كيف سنخرج أصلا؟ ألا ترى أن الصخور تسد المخرج الوحيد؟

قال صامويل:

– أنا لا أرى يدي حتى أرى الصخور التي تسدُّ المدخل، ثم أنا رقيب في أقوى جيش في العالم، وقد تدربتُ على البقاء يا دكتورة، أستطيع العيش هنا لعام كامل وإن اضطررتُ أن آكل لحمكم، أنا أتكلّم عنكم.

فجأة استيقظ يعقوب وهو يصرخ:

– دعوني أعِش.. اتركوني.

صفعه صامويل بقوة وقال:

– اهدأ أيها الجرذ، نحن في أمانٍ هنا.

تحسَّس وجهه ثم تحسَّسنا وقال:

– ما هذا الظلام؟ أين أنا؟

قلت:

– اهدأ يا يعقوب، نحن محاصرون بداخل الكهف.

قال:

– وكم مَرَّ علينا هنا؟

قلت:

– ساعتان على الأقل.

قال صامويل:

– الأصوات بالخارج قد هدأت، أمان.

قلت:

– حسنًا.. علينا أن نفكّر فيما نحن فيه الآن.. كيف سنخرج؟

أخرج يعقوب زجاجة مياه ليتجرع منها بنهمٍ.. فخطفها منه صامويل، وقال:

– لا تشرب بهذه الفجعة، علينا أن نحافظ على المؤن فنحن لا نعرف كم سنظل هنا.

قلت:

– هذا صحيح، وكذا سنفعل في الطعام وفي القداحات والبطاريات، ونأمل أن تبحث لجنة حقوق الإنسان عنّا سريعًا.

قلت موجهة كلامي لصامويل:

– تحسّس الجو وقل لي: هل تشعر بأي نسمة هواء؟

قال يعقوب:

– نسمة هواء؟ ما هذا السخف؟

قال صامويل:

- اصمت أيها الجرذ، هي تفكّر بطريقة صحيحة، نسمة هواء معناها مخرج للهواء، ومخرج الهواء يمكن أن يتوسع ليصير مخرجًا لنا.

قال يعقوب:

- فلنُزِل الصخور عن المدخل ونخرج يا هذا.

قال صامويل:

- أيها الجرذ تحسَّس الصخور بنفسك، كتل من الصخور يزن أقلها أطنانًا، حاول أن تزيحها وأنت منثني الظهر ولن تنجح ولو بعد مئتي عام.

قال يعقوب:

- فلتكفَّ عن مناداتي بالجرذ وإلا سوف..

قلت:

- فلتكفوا عن هذا، نحن سنعيش في هذا الكهف لفترة، إن لم نتعاون ونضع قانون وقواعد، فلن ننجوَ أبدًا.

قال صامويل:

- أية قواعد؟

قلت:

- قواعد للبحث، والأكل والمبيت وغيره، إذا تركنا الأمر هكذا ستنفذ المؤن وسنقتل مختنقين أو سنقتل بعض، هل لديك مشكلة في الحديث؟

لم يعلّق صامويل وإن أحسست أن الكلام لم يَرُق.

قال يعقوب:

- وهل سنظل في هذا الظلام الحالق إلى الأبد؟

قلت:

- سنحاول البحث عن طريق للخروج، فأنا أظن أن الكهف لا ينتهي هنا، بالتأكيد هناك أكثر من طريق وسنتوغّل.

قال صامويل:

- سنتوغّل الآن؟نحن قد ضاق بنا الحال وأجسادنا تمتلئ بالجُروح.

أردف يعقوب:

- كما أننا لا نعلم أي شيء عن هذا الكهف، لربما كان مأوًى للدببة أو أي حيوان ضارٍ.

قلت بلا مبالاة:

- يعقوب، نحن في نينوى، ولسنا في صحراء نيفادا، لا توجد حيوانات ضارية هنا، وإن وجد فسنأكله، أو ربما استخدمناه لنعرف طريق الخروج.

صمت يعقوب ثم تراجع بظهره وجلس على الأرض وقد اعترته الهموم وثقلت.

قلت لصامويل:

– هل من الممكن أن تُحصي ما معنى من مؤن يا صامويل؟

قال:

– حسنًا.

قلت:

– هل معك أي شيء للإنارة؟ أخرجَ قداحة وابحث عن غصن شجرة أو أي شيء.

قال:

– معي ما هو أفضل، معي مصابيح للإنارة والكثير من البطاريات، ومعي هذا.

قلت:

– نحن في الظلام يا ذكي.

قال:

– انتظري وسترين.

ثم أشعل ما معه فإذا به شمروخ أحمر كالذي يستخدمه مشجعو الكرة في العالم.

قلت سريعًا:

– أطفئه يا ذكي، أطفئه فقد نختنق هنا.

أطفأه، وهو يسب ويلعن ثم قال:

– والآن قد خسرنا واحدًا بسببك.

قال يعقوب:

– أنا جائع، أريد الاستحمام، أريد أمي.

قلت:

– أنت رجل يا يعقوب تريّث قليلًا، سنخرج عندما يحين الوقت.

وجلسنا في صمت.

كنت أنتظر ألسنة الشمس أن تأتي في ضجر ورعب، نريد إنارة طبيعية، نريد أن نرى من أين سيدخل الضوء؟

آه يا ربي لماذا نحن؟ لماذا لم نقتل وقتها ونسترح؟ في أي شيء أخطأت يا الله؟ هل تعاقبني؟ هل لأنني لم أتزوج؟ أم لأنني نسيت أنك موجود؟ نسيت تعاليمك؟

قال صامويل بإرهاق ومعاناة:

– فلنحاول النوم، وفي الصباح سنحاول أن نجد المخرج معًا، تذكروا نحن سننسى كل خلافاتنا وسنتعاون لنخرج من هنا، وخاصة أنت يا يعقوب، أقسم بالعذراء إذا ما تفوّهتَ بحرف عن معاناة اليهود هنا لأقتلك.

قال يعقوب:

– ألا يوجد إلا يعقوب هنا؟

قلتُ وقد ابتسمتُ في داخلي:

– حسنًا، فلنتعاهَدْ على الاتحاد، فحياة كل فردٍ منا هي حياتنا كلنا، ونجاتُنا من هذا المأزق، اقترب يا يعقوب، ضع يدك هنا وأقسِم على التعاوُن. وأنت يا صامويل، ضع يدك أيضًا، وأقسِم.

مددتُ يدي لأستشعر يد الاثنين الموحلتين تتحسسان يديَّ، ثم بدأتُ أنا بالقَسَم.

قلت:

– أُقسِم بربي وبمحمد عليه الصلاة والسلام، أن أتعاون على إخراجنا، وألا أبغضُ أيًّا منكم، وأن أُحافظ على أرواحكم كحفاظي على روحي، وأن نظل فريقًا واحدًا تجمعنا آدميتنا، والله على ما أقول شهيد.

همهم يعقوب ثم قال صامويل:

– بسم الأب والابن والروح القدس، بحق تجسد الرب في الناسوت، بحقِّ الصليب المقدس، أن أتعاون على إخراجنا، وإلا أبغض أيًّا منكم، وأن أُحافظ على أرواحكم كحفاظي على روحي، وأن نظل فريقًا واحدًا تجمعنا آدميتنا، آمين.

قال يعقوب:

- أشهد يا الوهيم، أن أتعاون على إخراجنا،وألا أبغضَ أيًّا منكم، وأن أُحافظ على أرواحكم كحفاظي على روحي، وأن نظل فريقًا واحدًا تجمعنا آدميتنا، وإن كنتُ كاذبًا في قسمي، فلتترل اللعنة على سُلالتي ولأتحسس طريقي بين الحوائط كالأعمى، ثم لتنشق الأرض وتبتلعني.

قلت:

- ما هذا القسم الغريب يا يعقوب؟

قال يعقوب:

- قسم شارلمان، هي صيغة متبعة منذ سبي با... ااااااه

صرخ يعقوب، فأصابني الهلع وقلت:

- ماذا؟

قال يعقوب:

- لقد قرصني شيء ما.

أصوات ضحك مكتومة قادمة منَ صامويل ثم قال:

- لقد حذّرتك من التفوُّه بكلمة.

ابتسمتُ وقد هدأت روحي ثم قلت:

- أرجوكم.. الأمر لا يحتمل، فلنتفرّق لننام.

وابتعدت قليلًا، كنت خائفة جدًّا، مرعوبة، أشعر بالبرد والخوف، أحتاج إلى يد أم لتطمئني.. نعم أنا قد بلغت من العمر ما يُقارب من أرذله، ولكني ما زلت طفلة، ما زلت أحتاج إلى أمٍّ تطمئنني بأن الدنيا ما زالت بخير، أحتاج إلى صوت أبٍ يعبر الردهة ليقول لي إنني في أمان.. أحتاج إلى زوج يحتضني بشدة، أحتاج إلى مهارةٍ بقائية، فما نفع وظيفتي الآن؟ يا لفرحتي بالوظيفة، كيف سنخرج من هذا المأزق؟ بالتدريس؟

تذكرت هذه الآية القرآنية عندما أحاط الأعداء بالنبي لوط وقد كسروا عليه باب بيته، فقد كانت القرية كلها شواذ جنسيًّا، وكان لديه في منزله ثلاثة ملائكة يتنكّرون في أجسام شباب جُملاء يافعين، فسمع أهل القرية بالخبر وتهافتوا على منزله من كل حدب وصوب، ثم كسروا الباب عليه وبداخلهم يريدون قتله.. عندها قال لوط عليه السلام "لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد"..

يا الله، لكم أستشعر معنى الآية الآن، أنا هنا وحدي حبيسة مع رجلين.. لا أعرف ما سيكون مصيري، ربما سأموت، ربما سأنجو، ولكني وحدي فعليًّا، لا أريد أن أصارع للبقاء وحدي، أنا أنثى خُلقت للأعمال الخفيفة.. للدراسة.. للحب.. للإنجاب.. لم أتمرّن على العسكرية ولن أفعل..

فلتساعدني يا الله.

نمتُ، أغمضت عيني واستسلمتُ للمصير ونمتُ، أخذتُ جانبًا رطبًا قليلًا بعيدًا عن صامويل ويعقوب، ووراء صخرة ما، ثم نمتُ.

صراع الكوابيس لم ينته ليلتها، كثير من الكوابيس، أسقط فأستيقظ لأكتشف أنني لم أنم كثيرًا فأكمل النوم، أغرق فأستيقظ ثم أنام.

كانت ليلة شنيعة بحق، جثث ونيران ورعب وقلة أكسجين، إنه الجحيم بذاته.

أخيرًا استيقظتُ فعليًّا، كان الكهف ما زال مظلمًا إلا من شزرات الضوء تتناثر هنا وهناك.

مكنني الضوء من تحديد أحجام أجساد يعقوب وصامويل وهم نائمون.

هذا الغطيط، إنه يعقوب، يغطُّ كالخنزير فعلًا، لا عجب أنه يهودي، ولكن كان هناك صوت أنين مكتوم يأتي من صامويل.

حاولتُ الوقوف وقد أصابني الدوار، واتجهت صوب الأنين لأرى ماذا يحدث.

اقتربت لأرى ظهر صامويل المواجه لي وهو يئنُّ.

لقد كان يكتم آلامًا وأنا واثقة بهذا، هل أوقظه؟ أم أتفحَّصَه بدون أن يعلم؟

اقتربت، ثم تحسست ظهره، ثمة بلل ما في ظهره ساخن، تحسسته أكثر فصرخ صامويل.

قلت:

- يا إلهي، أنت مصاب يا صامويل.

قال:

- لا يهم، سيلتئم، أنا مدرّب على هذا.

قلت:

- صامويل استمع لي، أنت مصاب منذ البارحة وأنا أحس بالدم يتدفق حتى الآن، عليَّ أن أكتم الجرح.

قال:

- لا، اتركيني وشأني.

قلت:

- لماذا ترفض أن أُعالجك؟

قال:

- ومنذ متى وأنتِ طبيبة؟

قلت:

- أخذت بعض دروس التمريض، اكشف ظهرك.

كشف صامويل ظهره، فلم أرَ شيئًا، كدتُ أقول له:

– إنني لا أرى شيئًا ولكنه مدَّ يده إلى حقيبته، وأعطاني مصباحًا كهربائيًّا.. أنرته، نفضت الأتربة عن ظهره، أخ يا إلهي، جرح كبير فعلًا،وضعت يدي وقلت:

– أتشعر به؟

صرخَ ألمًا، يبدو أنه قد أصيب فعلًا، ولكني لا أعلم خطورة إصابته، ربما كانت كدمات وربما كان كسرًا وربما طالته رصاصات الإرهاب.

قلت:

– أليس معك قطن طبي أو رباط مطاطي أكتم به الجرح؟

أشار إلى حقيبته الأخرى البعيدة، فزحفت على ضوء الكشّاف الصغير نحو الحقيبة.

وصرخت..

أفاق يعقوب على صوت صراخي وقال:

– ماذا؟ هل هاجمنا المسلمون مجددًا؟

قال صامويل:

– ماذا يحدث يا ليلى؟

قلت:

- حشش.. حشش..

قال صامويل: حش ماذا؟

قلتها بصراخ، وأنا أبتعد سريعًا:

- حشراااااااات.

سمعتُ أصوات السب واللّعن منهم واضحة.

قال يعقوب:

- وهل تتوقعين أن الكهف خمس نجوم؟ وسيأتي النادل حالًا بأطباق اللزانيا؟ إنه كهف لعين.

بكيتُ وصرختُ وأنا أقول:

- لا أريد أن أكون هنا، أخرجوني من هنا.

قال صامويل معنّفًا يعقوب:

- اخرس أيها الجرذ.. إنها فتاة ورقيقة فلتتمهَل عليها.

قال يعقوب:

- عليها أن تستوعب ما نحن فيه الآن، ثم ألم تكن متماسكة كل هذا الوقت؟ ما الذي جدَّ؟ بعض الصراصير؟

قال صامويل:

– لا تتكلّم أنت عن التماسك، بنطالك يشهد.

أضاف صامويل وقدْ اقترب مني زحفًا:

– دكتورة ليلى، هدِّئي من روعك سيدتي، علينا أن نتماسك، علينا أن نواجه مصيرنا بشجاعة.

أمسك يدي، وقال:

– سأُدافع عنكم مهما يحدث، هو واجبي العسكري سيدتي، لا تخافي.

هدأت قليلًا إن لم أستطع كتمان الأنين، ثم تذكرت واتجهت إلى الحقيبة، أخرجت الشاش الطبي والقطن، وقلت: اكشف عن ظهرك يا صامويل.

كشفه صامويل، وانشغلت بشد القطن وكتم الجرح بالرغم من كمٍّ الملوثات التي حولنا، ثم لففتُ الشاش حول جسده كيفما اتفقّ.

قال يعقوب:

– أنا جائع.

لم أكترث له، وأكملت لفَّ الشاش حول جسد صامويل.

كان يتعاون معي كمن وثق أخيرًا بي، لم يكن من قبل واثقًا بي ولكن ربما رأى فيَّ ابنته أو أخته، لا أعلم، ولكن قلبه قد رقّ فعلًا.

يعقوب:

– أنا جائع.

انتهيت، ثم طلبتُ طلبًا غريبًا حقًّا.

قلت:

– صامويل، هل تسمح لي بمعانقتك؟

قال صامويل، وقد خجل:

– لماذا؟

قلت:

– أريد أن أشعر بالأمان.

اعتدل صامويل في جلسته وعانقني، أرحت رأسي على صدره القوي وعانقته بشدة، حتى أنني قد عانقت قدمه بقدمي، كنت كالطفلة الصغيرة التي تشعر بأنها وحدها في هذا العالم، وكنت أريد الاطمئنان فقط.

لم أكن أعلم أن يعقوب يغار على شيء لا يملكه أبدًا، لقد نظر لنا وسط خيوط النور البسيطة واشتعل قلبه غيرةً وحقدًا.

أما أنا فقد بكيتُ أنا أحتضنُه، وشعرتُ بيد صامويل تحتويني فعلًا.

قال يعقوب:

- متى سنفرغ من كل هذا الحب ونهتم بمشكلتنا العويصة؟ نريد أن نخرج من هنا.

لم أكترث له ولكن صامويل قال:

- ليلى، علينا أن نفكّر كيف سنخرج من هنا، نحن في موقف حرج، أعدك بأن أحتضنك عند خروجنا.

قلت وقد هدأت:

- حسنًا، ماذا سنفعل الآن؟

قال صامويل:

- علينا أن نبحث عن مخرج، أو على الأقل أن نبحث عن مكان أوسع من هذا.

قلت:

- حسنًا، فلنحمل أمتعتنا ونتحرك للداخل إذن.

قال يعقوب:

- أنا جاااائع.

كم أنت طفل خبيث يا يعقوب!

***

الرقيب صامويل فرانكلين

صوت تشويش..

ثم قرَّرنا أن نبحث عن مخرج، يعقوب اليهودي لا يكفُّ عن التذمّر، وليلى العربية لا تكفُّ عن البكاء، وأنا لا أكفُّ أبدًا عن الألم.

نعم، أنا الوحيد الذي يعرف مصيرنا، وأعرف نهايتنا جيدًا، لن نخرج من هذا الفخ مهما نحيًا.. أنا كنتُ في العراق إبان الحرب، وأحفظها شعبة تلو الشعبة.

وطبيعة جبال نينوى، وكهوفها لا تنمُّ أبدًا عن تفاؤل، فكهوفها متشعّبة كالمتاهة، مفرّغة من الداخل بلا مخرج أبدًا، من يعلق بها فإنه يعلق للأبد.

بالطبع أذكر ما حدث للكتيبة بي سيفيل، فقد انتهى بهم الأمر بداخل كهوف كهذه.

أكملنا طريقنا، قررنا التوغّل للداخل قليلًا علّنا نجدُ أرضًا واسعة، أو مخرجًا آمنًا من هنا وإنني لأشكُّ أننا إذا ما خرجنا أن نُقتل على أيدي الإرهابيين الحثالة.

لم أكن أكره المسلمين قط، فجاري في وطني أمريكا هندي مسلم، وهو حُسن الطلة، كريم، مضياف، حتى أنني كنت أحسده على ابتسامته بالرغم مما يتعرّض له من مضايقات كونه مسلمًا، ولكنه دائمًا ما كان يبتسم.

ولكن بعدما رأيت الإسلام على وجهه الحقيقي، ورأيت الهتاف، والقتل والدماء والتفجيرات ولحاهم وقسوة قلوبهم، صرتُ أكرههم، يستحقون القتل بألف حربة.

نعم، أنا لم آمن قط من ليلى هذه، إنني أثق بيعقوب أكثر، على الأقل هو يهودي لن يقتلني، وإن حدثت مشادة بين الاثنين حتمًا سأنصر يعقوب.

نعم هو يهودي، ونعم أقرانه هم من قتلوا المسيح، ولكنهم عانوا وبشدة بعدها، نعم بالتأكيد سأكون في صف يعقوب، بالرغم من أن ليلى فتاة وضعيفة.

حقًّا هو لأمر مربك، ربما لن أقف في صفٍّ أيٍّ منهم، ربما سأُفضّل نفسي عنهما.

القسم؟ هذا ليس ميثاق الأمم المتحدة ما أقسمتُ عليه، سأحترمه جزئيًّا حتى نجد مخرجًا ما، وعندها فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم.

سرنا نحو خمس دقائق في ممر يشبه الدهليز، متّسخ جدًّا، ويبرز منه أحجار مُدبّبة، يعقوب يحمل الحقائب، وليلى تبكي كالعادة.

وصلنا لما يشبه الدهليز، وبه ممرانِ يسارًا ويمينًا، كنت أُريدُ أن أتجه يسارًا، فالممر يبدو أوسع عندها.

ولكن قال يعقوب:

– لا تتبّع أفكارك يا صامويل، فلنتبّع إحساسنا، وإحساسي يقول اليمين.

قلت:

– ولماذا اليمين؟ ولماذا ليس اليسار؟

قال:

– لا أعلم هو إحساس فقط ليس أكثر، ربما كنتُ على صواب وربما كنتُ على خطأ.

قالت ليلى:

– أنا مع يعقوب، منطقيًّا علينا أن نلتفَّ في اتجاه الجبل، ونحن قد دخلنا من اليمين عندما كنا بالخارج، لا نريد أن نتوغّل.. سُحقًا لهما!!!.

قلت:

- حسنًا، كما تريدان، ولكن نحن فريق لا تنسيا هذا.

تحاملت، واتجهت يمينًا وتبعوني هم، نعم أنا كنت في الأمام، فأنا كنت أقواهم بالرغم من إصابتي،كما أني مدرّب على تحمُّل الإصابات والمخاطر،وأعلم أن يعقوب قد كان في جيش بلاده، ولكن ليس بعيدًا أنه كان يخدم في مكتبة أو دار مسنين ربما.

سرنا برهةً، ثم انحرف الطريق وأظلم، فأخرجتُ ثلاثة كشافات صغيرة، وأعطيت كلًّا منهما واحدًا، وتوغلنا أكثر.

لفت انتباهي أنه لا توجد عناكب هنا، لا أرى أثرًا لخيوطهم بالرغم من أنه كهف غير مأهول، وهي بيئة مناسبة للعناكب، والصراصير، ولكن كان المكان نظيفًا، كما لو أنه قد تم تنظيفه جيدًا قبل مجيئنا.. نعم هو متّسخ ولكن اتّساخه لا يخرج عن كونه بعض الأتربة فقط.

المهم، المسار كان يمينًا في بادئ الأمر، ولكنه انحرف مع الوقت فسار يسارًا، سرنا نحو النصف ساعة آملين في مخرج، بلا جدوى، يبدو أننا نخوض بداخل الجبل أكثر فأكثر.

قال يعقوب:

- أنا جاااائع.

قالت ليلى وقد أمسكت بقدمها:

– حسنًا، علينا أن نأكل حتى نستطيع أن نواصل المسير.

قلت:

– ليس هذا وقته، نستطيع أن نأكل في الطائرة ونحن عائدون من هذه المقبرة.

قال يعقوب:

– ستكون مقبرة بالفعل إذا لم نأكل.

قالت ليلى:

– وأنت أيضًا يا صامويل عليك أن تأكل، جرحك لن يُشفى بلا زاد، أمي قالت لي هذا عندما كنت صغيرة.

قال صامويل:

– ما هذه التخاريف، أليس فيكم يا عرب إلا الترهات؟

نظرت لي ليلى نظرة نارية، لقد تماديتُ هذه المرة.

قلت سريعًا:

– حسنًا، فلنأكل، ماذا لديك لنا يا يعقوب؟

أخرج من حقيبته أحد المعلّبات وزجاجة مياه صغيرة، قال:

- هذا كل ما لدينا الآن إذا ما أردتم أن نعيش هنا فترة.

أمسكت ليلى بالمعلّب، وقالت وهي تبكي:

- أهذا مصيرنا؟ هل سنقتات على الفُتات حتى نموت هنا جوعًا؟

قلت:

- ليلى، تماسكي، لن نموت بحق المسيح، الرب لم ينسَ القديسين بداخل الكهوف والأودية، ولن ينسانًا أبدًا.. ألم يكن مار مينا مصريًّا؟

قالت:

- نعم، الشهيد مار مينا العجائبي، ولكن ما دخله فيما نحن فيه؟

قلت:

- ليلى، مار مينا العجائبي قد قطن الصحراء خمس سنوات ولم ينسه الربُّ قط.

قال يعقوب بغضب:

- ألن نأكل؟

نظرت لهذا الجرذ ثم قلت:

- حسنًا، فلنأكل إذن.

دقيقة من الصمت ومحاولات فتح المعلّب، نجح صامويل أخيرًا في فتحها بحجر صغير، وأخذنا نأكل الفتات بأيدينا المتسخة.

قال يعقوب:

– بمناسبة مار مينا، بدلًا من هذا الضجر، لماذا لا تشعل نارًا كالمخيمات ونتسامر؟ لربما نسينا ما نحن فيه؟

قلت:

– نشعل نارًا في مكان مغلق؟ هل تتعاطى الماريجوانا يا صاح؟

قالت ليلى:

– حسنًا أنا موافقة على فكرة التسامر بلا نيران طبعًا، ولديَّ فكرة.

قلت:

– وما هي؟

قالت:

– كل منا يقصّ قصة عن الشجاعة، دينية كانت أو من واقعه أو أي شيء.

قلت:

– لا أعرف ولا أريد.

قالت وهي تلوك قطعة لحم مفروم:

– صامويل، أنت قصصت عليَّ منذ دقيقتين قصة مار مينا، أنت تعرف، شاركنا لربما أعطيتنا الأمل.

قلت:

– حسنًا، ولكن لن نكررها.

قال يعقوب:

– صامويل، احكِ.

قلت:

– حسنًا، حسنًا، أنا منيحي، ولكني لست بمؤمن أبدًا، لست من هذا النوع شديد العنصرية تجاه المسيح وخلافه، ولكن هناك تلك القصة، الصَّلب، الذبح، كيف لرجل عظيم كالمسيح أن يقبل العذاب على نفسه من أجل المغفرة للبشر؟ نحن نتعلّم منه التضحية في كل حياتنا، إننا..

قال يعقوب مقاطعًا:

– يكفيك تبشيرًا بمسيحك يا هذا، نحن نريد قصة لا نريد أن نؤمن بمسيحك.

قلت في غضب:

– مسيحي؟ إنه مسيحنا كلنا.

قال يعقوب:

– لست أنا، مسيحي أنا سيأتي من صلب الملك داوود، وليس مشكوكًا في نسبه.

قفزتُ عليه وقلت:

– ماذا قلت يا وغد؟

قال:

– اهدأ، أنت تعلم أنني يهودي، ولا أؤمن بأنه هو المسيح، هو ابن يوسف النجار يا أيها الرقيب، ليس له أب.

قلتُ وقد كوّرت قبضتي:

– الربُّ هو الأب يا قاتل المسيح.

قال، وقد ابتعد في جلسته قليلًا:

– هدِّيء من روعك أنا أمزح،ولكن قتلنا له كان مُقدرّا لا تنكر، ثم لماذا لا تكلّم ليلى فهي لا تعترف بالمسيح أصلًا.

قالت ليلى بتوتر:

– دع ليلى وشأنها، نحن نعترف بالمسيح بل ونكرّمه أكثر من المسيحيين، ومن أسس الإيمان بالله الإيمان بأنبيائه ورُسله.

قلت:

– وهل المسيح نبي؟

قالت:

– نعم هو نبي مرسل من الله.

قلت:

- وبالطبع ستقولين لم يحدث صلب وكل هذا افتراء.

قالت:

- صامويل، أنا أعرف أن الصلب قد حدث، ولكن شخصية المصلوب تختلف عندنا.

قلت:

- ومن أنتم يا حثالة حتى تحكموا على الرب.

نظرت لي ليلى أبشع نظرة من الممكن أن تراها في حياتك، حتى أوشكت أن تقفز فوقي لتسحق رأسي.

قلت محاولًا إنهاء الأمر:

- حسنًا، فلنتكلم عن موضوع آخر،

قالت ليلى:

- لا مزيد من الكلام، سنواصل مسيرتنا وأرجو من الله أن نخرج سريعًا، فالسجن لا يكون سجنًا إلا عندما تكره زميل الحجرة.

ووقفت على قدميها وقررت الذهاب وحدها.

قام يعقوب من جلسته وحزم الحقائب سريعًا ثم تبعها، وكذا فعلت.

قلت لليلى:

– لا تغضبي يا ليلى، نحن في موقف لا يُحسد عليه.

قالت:

– حسنًا، ولكن لا مزيد من الكلام معي إذن حتى نخرج من هنا.

أومأت برأسي وسرت أبطأ حتى تسبقني هي.

مال يعقوب برأسه نحوي وقال:

– لماذا غضبت هكذا أيها الرقيب؟ أغضبت من أجل ربك؟ وأين ربك مما نحن فيه الآن؟

قلت:

– لا أعلم يا يعقوب واتركني لشأني.

قال:

– لو كان الرب موجودًا الآن لأنقذنا، ولكننا قتلناه، وانتهى.

واصلنا المسير نحاول أن نتحاشى النظر إلى بعضنا البعض، كلٌّ كان يفكّر في مصيره وذكرياته واشتياق ذويه إليه.

أنا لا أعلم لماذا لم ترسل اللجنة، وذلك السير الروسي أي إمدادات أو جنود للبحث عنا، هل يا ترى لأنه لم يبلغه أحد؟ ألم يتواصل معة أحد من المعسكر في العراق؟ هل تُوفُّوا كلهم؟ هل لأن كل كتيبتي قُتلت فلم يبلغه أحد؟

كنتُ أعلم أن دخولنا هذا الكهف يُشبه نزول آدم إلى الأرض، بلا أمل ولا ملائكة تحرس وتسهر، وعلينا أن نبحث عن الجنة ثانية أو نُدفن هنا.

يا تُرى كيف حال ابنتي الآن؟ وماذا ستفعل زوجتي عندما تعلم أنني قد دُفنت للأبد في كهف في العراق؟

أنقذنا بحكمتك يا رب الملكوت، كم نحن ضعفاء!

ظللنا نسير ونسير حتى تهتكت عضلات أرجلنا، وفاحت روائحنا، وذابت أظفارنا، لو كنا بالخارج لأقسمتُ أننا قد عبرنا حدود العراق بالفعل، هذه المتاهة المُتشعّبة لا تنتهي أبدًا.

صاحت ليلى:

- ضوء.. ضوء قادم من الأمام، لربما كان المخرج.

قال يعقوب:

- أين هذا؟ لا أراه.

قالت:

- انظر.. وأشارت إلى الأمام.

بالفعل إنه ضوء، يا رباه! هل استُجيبت دعواتنا أخيرًا؟

أسرعنا الخُطى، كان الضوء يقترب رويدًا رويدًا كمصابيح القطار في النفق.. ربما هو المخرج فعلًا.

ابتسامات ترتسم على الوجوه، يقال إن الأمل هو ما يُطيل العمر، وهو ما يعطي الحياة مغزاها، لا، الحب ليس أساس الحياة كما يدّعي البعض.

الحب هو جزء من الأمل، هو جزء كبير جدًّا من استمرارية الحياة، مَن يحبُّ يرى أمامه مستقبل مليء بالرومانسية والدفء فيتجدَّد الأمل، والأمل هو من يعطي البقاء نكهة مميزة.

مَن منا لا يضع لنفسه هدفًا يعيش من أجله. أليس الهدف هو أملًا؟.. أليس الأمل هو النور الذي ينير لك مستقبلك؟ وهو ما تعيش لتحقيقه؟

كان أسرعنا هو يعقوب، كان يثب كالطفل في الحديقة، يلهو وهو يسرع خُطاه آملًا في الخروج، كان بداخله طاقة إيجابية غير مسبوقة، لماذا يحب اليهود الحياة بهذا الشكل؟ ألا يؤمنون أيضًا بالحياة الأخرى؟ ألا يحبّون الموت ليقابلوا الربَّ؟

حسنًا، وصل يعقوب أولًا، ونحن وراءه.

ثم صرخ فجأة وقال:

– يااا لألعاب القدر الخبيثة.

ثم نظر فوقه، وقال:

– لماذاااااا؟!!

***

الصحفي يعقوب جريفمان

ما هذا المكان الذي دخلنا فيه؟ لقد سئمتُ حقًّا من ألاعيب الرب، نريد أن نخرج لا أن تطيل حبسنا في السجن، لماذا..؟

قال صامويل:

– ماذا ترى أيها اليهودي؟ هل هو مخرج؟

قلت:

– اقترب لترى أنه مخرج بالفعل.

أسرع صامويل في خطاه ووراءه ليلى تلهث كالكلب، ثم اقتربوا ونظروا.

قلت:

– ها هو المخرج.

وأشرت إلى السماء.

كان ما نراه في هذه اللحظة مخيبًا للآمال ومدهشًا في نفس الوقت.. كانت أرضًا واسعة، ليست بالواسعة جدًّا إنما في حجم ملعب للكرة أو أقل، مزروعة فعلا، بعض الورود والثمار، ولكن في باطن الكهف.

كان ضوء الشمس ساطعًا جدًّا لأنه كان يدخل من فتحة كبيرة بالسقف، بالتحديد لم يكن هناك سقف للكهف، كنا نرى السماء بوضوح، ولكن ارتفاع الفتحة يفوق تصوركم، الحائط يمتد إلى عنان السماء، أملس به بعض البروز البسيطة، ولكن لا تكفي للصعود، ويبدو أن المزروعات هنا تعتمد بشكل أساسي على مياه الأمطار، هناك بعض الثمار وشجرتان، هي حديقة بالفعل ولكن بلا طيور وبلا مخرج.

قالت ليلى:

– سبحان الله! يخلق الحي من الميت.

قلت:

– هذا ليس وقتًا مناسبًا للفلسفة يا ليلى، كما ترين، لا مخرج من هنا، لا يوجد أمل إلا في طائرة هليكوبتر تدلي بأطول حبل في العالم، ربما تبتعد قمة الجبل لثلاثمئة متر أو يزيد، كيف سنخرج؟

قال صامويل:

– ربما هناك مخرج ما.

قلت:

– الطيور نفسها، هل تسمع لها صوتًا؟ حبيبي سنظل هنا إلى الأبد، حتى إننا لن نستطيع العودة عبر الدهليز، كنا نتزل والاتجاه كان نزولًا، كيف سنتسلق كل هذا؟

قالت ليلى:

– سيجدوننا، السير نيقولا لن يهدأ أكيد، إنها ملايين يا يعقوب.

قلت:

– على الأقل سنبيت في مكان يطمئن القلب، هناك شجرتان وخضرة ومياه.

قالت:

– وأين المياه؟

قلت:

– عندما تمطر أخرجي لسانك وابتلعي.

قال صامويل:

– حسنًا، علينا إذن أن نتعايش معًا في أرض الكهف هذه حتى يخرجونا.

قلت:

- حسنًا، ولكن الأرض من حقي أنا، سأكون أنا رئيس الأرض هذه.

قالت ليلى:

- هل نلعب إحدى ألعاب طفولتك يا يعقوب؟ نحن ثلاثة ولسنا آلافًا، والأرض حقنا كلنا.

قلت:

- نعم ولكني أول من وصلتُ إلى هنا.

قال صامويل:

- حسنًا كما تريد، ضايفنا في أرضك إذن، وابنِ لنا مكانًا للنوم.

ضحكت ليلى، وابتسم صامويل بدوره، ولكني لم اكترث لهم وبدأت في وضع الأمتعة والبحث عن أكثر سبل الراحة في هذا الكهف العجيب.

قالت ليلى:

- لماذا لا نسمع صوتًا قادمًا من الخارج؟ هل نسينا هؤلاء الإرهابيين؟

قال يعقوب:

- ربما انسحبوا.

قلت:

- انسحبوا من يوم واحد؟ هل أنت مجنون؟.. هم لا ينسحبون أبدًا، هل نسيت ما حدث في حلب؟ لقد ضربتهم الطائرات وما زالوا يقاتلون، رموا عليهم الكيماوي والبراميل ولم ينسحبوا.

قالت ليلى:

- ربما كانوا إرهابيين لكن فرسانًا ورجالًا.

قلت بازدراء:

- نعم نعم، وبمساعدهم وفروسيتهم نحن محبوسون هنا الآن، لو رأيتَ رسولك الآن لشكرته.

قالت ليلى بغضب:

- وما دخل رسول الله بكلامك هذا؟ احذر.

قلت:

- ما دخله؟ نحن هنا بسبب تعاليمه.

قالت وقد أوشكت أن تتهوَّر:

- إياك، ثم إياك أن تتطاول على أشرف الخلق محمد، وإلا..

قال صامويل:

- اهدئي يا ليلى، وأنت أيها الجرذ، فلتهدأ، فالأمر لا يحتمل مهاتراتك، وأنتِ يا ليلى، لا الرسول ولا الرب نفسه قادر على إخراجنا من هنا إذا ما اختلفنا، فلتتذكرا القسم.

قلت:

- ولكنها هي من بدأت.

قال صامويل:

- اخرس واستمع لما أقول،علينا الآن أن نتحدث ونضع القواعد.

قالت ليلى:

- أية قواعد يا صامويل؟

قال:

- ما اقترحته البارحة، القوانين، علينا وضع القوانين وتقسيم العمل بيننا، وعلينا أن نكف عن العراك، العراك سيميتنا هنا ونحن في غِنى عن هذا.

قالت ليلى:

- موافقة، ولكن اجعله يتوقف عن استفزازي.

قال لي صامويل:

- يعقوب، علينا أن نوقن أننا في ورطة كبيرة، ورطة من التي تقتل، سنموت عطشى أو جوعى أو فاقدين لعقولنا، إذا لم نضع

قوانين ونقتسم المهام سنموت، اشكر ربك لعثورنا على هذه الحديقة الصغيرة، على الأقل نحن نرى وجوه بعضنا البعض، وهناك شجرتان، نرى الأخضر واليابس، وسنخرج الآن أو بعد حين، ولكن علينا أن نتعاون.. نعم المساجة الخضراء ليست بكبيرة وتكفي لنوم شخصين فقط، ولكننا سنتعاون، سنقتسم مواعيد النوم، موافقون؟

قلنا:

– موافقون.

قال:

– حسنًا، نحن الثلاثة شركاء هذا المكان بالتساوي، ليلى العربية ويعقوب اليهودي وأنا صامويل المسيحي، موافقون؟

وافقنا.

أكمل كلامه قائلًا:

– سنضع بعض العهود وسنوقّع عليها بدمائنا، وسنلتزم بها، ومن يخالفها سيحرم من حصّته في الأكل.

قلنا:

– موافقون.

قال:

- عهودنا مقدسة طالما نحن هنا ولم نخرج، وعلينا الالتزام بها، سيكون دستورنا.

قلت:

- ولماذا كل هذا يا صامويل؟

قال:

- عندما جلسنا ليوم بلا قانون كدنا نقتل بعضنا البعض في كلام ليس له فائدة، خير دليل ما حدث بينكما منذ لحظات، ولم يتكرر هذا.

قالت ليلى:

- أنا موافقة.

قلت:

- وما هي هذه العهود؟

قال:

- أول العهود المقدسة: تقسيم العمل، أنا سأتولى البحث عن مخرج، ويعقوب يتولى الطعام والاحتفاظ به وجمعه، وأنتِ يا ليلى تتولين نظافة الأرض والاهتمام بالمكان وأشياء أخرى.

قالت:

- وما الأشياء الأخرى؟

قال صامويل:

- الإسعاف كما فعلتِ معي من قبل، والتسلية.

قالت:

- هل تريدني أن أرقصَ لكما أو تمارسان معي الجنس مثلًا؟ هل تمزح؟

قال:

- لا أقصد هذا، أقصد القصص، أن تقصِّي علينا القصص قبل النوم.

قالت:

- حسنًا يا أطفال.

أضاف صامويل:

- والتدوين أيضًا يا ليلى، أنتَ أستاذة جامعية.

قالت:

- تدوين ماذا؟

قال:

- يومياتنا، إحداثياتنا، فقد لا ننجو وعلى من أرسلونا على الأقل أن يعرفوا ما جرى لنا بالداخل.

قلت:

- كنْ إيجابيًّا أيها الثور الهائج، سنخرج.

قال:

- علينا افتراض كل شيء، ليلى من فضلك أخرجي ورقة وقلمًا مما معك في الحقائب ودوني العهود، وأنا معي كاميرا هنا والكثير من البطاريات وسأصوِّر بعض المقتطفات أيضًا.

أخرجت ليلى بعض الوريقات وبدأت في التدوين.

قال صامويل:

- العهد الثاني: الولاء، ألا يتّفق اثنان على الثالث مهما يكن الموقف، سنتعاون.

العهد الثالث: ممنوع منعًا باتًّا التحدث أو التفاخُر أو حتى الإيحاء عن الدين أو المعتقد أو السياسة، نحن من ثقافات مختلفة ونريد أن نظل على وفاق، لا نريد تكرار العراك ثانية.

العهد الرابع: الأخوة، إذا ما طال حبسنا ألا نمس ليلى بشهوة، وأن نحافظ علي تحضّرنا مهما يحدث.

العهد الخامس: الطعام والشراب والثمار حق مكفول لنا جميعًا. يعقوب يتولى توزيع الطعام يوميًّا بالتساوي وبحصص متباينة، وبقية

اليوم إما يجمع الثمار أو يزرع بذورها، له حق التوزيع وليس له حق التحكم في حصتنا.

العهد السادس: النوم، الحديقة تكفي اثنين للنوم فقط، إذن يوميًّا سننام دوريًّا اثنان والثالث يحرس، ثم ينام الأخير بعدما يستيقظ الآخران، ونُبدِّل أدوارنا بالتساوي.

العهد السابع: سأتكفّل أنا بالبحث عن مخرج، سأقوم بالحفر والبحث حتى نخرج من هنا، وعليكما مساعدتي في حمل العتاد أو مرافقتي.

العهد الثامن: ممنوع منعًا باتًّا سرقة الطعام، أو التلصُّص، أو النوم في غير ميعادك، أو الإخلال ببنود العهد.

العهد التاسع: العقاب، عند مخالفة العهد يتم حرمان المتهم من حصته من المياه والطعام اليومية، وإذا ما تكرر الفعل فيتمُّ طرده من الحديقة.

العهد العاشر: التضحية، إذا ما احتجنا إليها، فربما هاجمتنا قوافل الإرهاب.

العهد الأخير: الأسلحة، كل سكين أو أي شيء حاد سيجمع ويُدفن في وسط الحديقة، نحن هنا نتعاون ولا نريد أن نقتل بعضنا البعض، القوة سنستخدمها للخروج لا للانتقام والعراك.

هل تريدان إضافة أي بند؟ أو لديكما أي تعليق؟

صمتنا قليلًا ثم قالت ليلى:

– اممممم لا، موافقة.

ووافقتها أنا، قال صامويل:

– هل دوّنتِ كل شيء يا ليلى؟

قالت:

– نعم فعلتُ.

قال صامويل:

– حسنًا، والآن، سنكتب أسماءنا على العهد ونعلّقه على هذه الشجرة "وأشار إلى الشجرة التي تتوسط المكان".

أخذ صامويل العهد من ليلى، ثم أخرج سكينًا صغيرًا وجرح إبهامه ثم طبعه على الورقة وقال:

– افعلوا كما فعلت.

قالت ليلى:

– هل يجب أن نؤلم أنفسنا لكي تُصدِّق؟

قال:

- نعم، علينا أن نفعل هذا يا دكتورة.

قالت:

- حسنًا أعطني السكين.

أخذتها وجرحت إبهامها ثم طبعت بدمائها العهد.

أخذتُ السكين، وجرحتُ إبهامي وصرخت، ثم طبعتُ بدمي.

وقام يعقوب بتثبيت العهد جيدًا على الشجرة، ثم نظر لنا طويلًا نظرات كلها تحذير ووعيد ثم قال: والآن، كل من معه سلاح حادٌّ فليأتِ به.

أخرجت ليلى قاصفة أظفارها ومطواة صغيرة، وأخرجت أنا قاطعًا كان معي وإبرة صغيرة، أما صامويل فأخرج مسدسًا صغيرًا ومجموعة من السكاكين وحزامه، وحفرنا حفرة معًا ثم رمينا بها الأسلحة.

قال صامويل:

- وكدليل على حُسن النية، سنتركها مفتوحة للكل، ولكن احذروا، لا أحد يقترب.

نظرت ليلى لي ثم قالت:

- أنا لم أفعل، ولكني لا أثق في يعقوب.

قال صامويل:

- يعقوب طيب وسيستمع لنا، أليس كذلك يا يعقوب؟

قلت وأنا أبتلع ريقي:

- نعم بالطبع بالطبع.

قال:

- لأنه إذا ما خالف العهد، سينام في حفرة بالخارج في الظلام.

ابتلعتُ ريقي مجددًا، آه لكم أنا أكرههم، هؤلاء القردة، كم أكرهكم.

***

قلت:

- والآن يا صديقي، ما الذي سنفعله؟

قال صامويل:

- لا أدري، ماذا تريدون أن تبدآ به؟

قال يعقوب:

- مكان النوم بالطبع، أين سننام؟ في الهواء الطلق؟ سنموت من شدة البرد.

همهم صامويل كمن يفكّر ثم قال:

- حسنًا، هل من اقتراحات؟

كنت أفكّر جيئةً وذهابًا ثم قلت:

- ألديك فأس يا صامويل؟

قال:

- لا، ولكن لماذا؟

قلت:

- كنتُ أفكّر في بناء مأوًى حجري، ما أكثر الحجارة هنا ربما نرصص بعض القوالب بعد تشذيبها ثم نبني حجرة صغيرة.

قال يعقوب بسخرية:

- نحتاج مصنع وثلاث سنوات يا ليلى، مستحيل بالطبع أن نفعل هذا وحدنا، ثم كيف سنلصقها في بعضها البعض؟

قالت:

- الطين عند تسخينه ثم تجفيفه يشكّل فخارًا، علينا أن نُبدع، ربما نلصق الحجارة بالطين، وربما...

قال صامويل:

- فكرة جميلة يا ليلى، وأنا لديَّ فكرة.

وذهب يعقوب إلى الحفرة وأخرج ثلاثة سكاكين، ثم اقتطع بعض الجذوع من الشجرة الثانية وبعض الفروع.

قال:

- من معه حبل؟

لم نجبه طبعًا، فاقتطع قطعة قماش كبيرة من قدم بنطاله، وقال:

- افعلوا مثلي.

فعلتُ كما فعل، وكذا يعقوب، ثم قام بربط الأفرع إلى مجموعات صغيرة ثم ربطها بالقماش جيدًا، ثم ثبّت سكينًا في آخر كل الفروع وربطه جيدًا أكثر من مرة في مقدمة الفروع، ثم قال:

- ها هي ذي فئوسنا، حافظا عليها.

أخذتُ منه واحدًا ثم قلت:

- يا الله، أنت ماهر يا صامويل.

ابتسم ورمى الآخر إلى يعقوب، ثم قال:

- فلنقتطع بعض الصخور الآن، ومن يجمع أكثر له نصيب أكبر من المياه.

قلت:

- وأين سنقطع؟

قال:

– بعيدًا قليلًا عن الحديقة، نتقابل بعد قليل، كل منا في جهة، وعلينا أن نستغل نور الشمس في العمل فهي السبيل الوحيد حاليًا للإنارة، علينا أن نحافظ على الكشافات.

كنت كعادتي حزينة ولكن بداخلي أمل، هو أمل واهٍ ولكنه أمل، العمل يولد الأمل، والأمل هو السبيل الوحيد للنجاة، ولهذا اجتهدت في الحفر والتقطيع.

آه يا الله.. أنا الدكتورة البسيطة التي لم تقم بعمل عضلي من قبل أن أشمّر كمّي وأمسح فيها عرقي وأكسّر في الحائط، سبحان الله! يبدل الحال، يُعزُّ من يشاء ويذل من يشاء.

كنتُ قد اتخذت مكانًا بعيدًا عن الحديقة الغريبة هذه، به أحجار بارزة قليلًا، هذا البروز سيكون عاملًا مساعدًا في فصلهم عن جدار الكهف، ومعي كشّاف صغير وزجاجة مياه مما معنا مليئة بقدر قليل لتساعدني على استكمال العمل.

كنتُ مبتعدة قليلًا عن صامويل ويعقوب، كنتُ بعيدة بحيث لا أراهما ولا أسمع صوتهما إلا بعض الدقات على الجدران، فهما يفعلان كما كنت أفعل وقتها.

كان الخوف قد زال قليلًا، قلبي انتظم في دقّاته عن ذي قبل، وهذا قد أدهشني قليلًا، ولكني قد فسّرته بالمنطق، الحكمة تقول إن سماع

صوت الأسد اول مرة يرعب كثيرًا، سماعه للمرة الثانية يرعب قليلًا، الاستمرار في سماعه يزيل الرعب، يخلق عقل الإنسان حالة من الملل واللامبالاة عند استمرار الخطر بشكل متكرر..كما لو أنه يفرز الأدرينالين ليهدئك، أو يعطيك أسبابًا منطقية لتقبّل الأمر.

إنه التعوُّد، التعود الذي يقتل المشاعر والحب والرغبة والرهبة والرعب وكل شيء، ولهذا لم أعد خائفة.

أمسكت الكشاف الصغير بفمي أوجِّه الضوء في اتجاه الجدار البارز ويداي الاثنتان على المعول، كانت الإضاءة خافتة جدًّا ودائرة الضوء لا تتعدى النصف متر، رفعتُ المعول وكدتُ أضربه، ثم لمحت شيئًا جعلني أتوقَّف.

رسومات آشورية، رسومات أثرية وشيء يشبه التمثال البارز من الحائط.

ربما كانت مقبرة أثرية كاملة يسيل لها لعاب هوارد كارتر نفسه.

نظرت، ثم ابتسمت في ازدراء.

ما نفع الحضارة والكنوز فيما نحن فيه الآن؟ بماذا ستنفعنا مجموعة من التماثيل؟ ماذا إذا اكتشفنا طنًّا من الذهب النقي، بماذا سيفيدنا ونحن حبيسو هذه المقبرة؟.. نعم أنا عالمة تاريخية، وأعشق الآثار، ولكني كنت أعشقها من جامعتي، من بيتي، وأنا أفتح ثلاجتي لأجد الماء المثلج والكثير من الطعام.

أما الآن، قيمة زجاجة من المياه المثلجة أكثر بكثير من حضارة بلاد النهرين كاملة.

ابتسمت، ثم رفعت المعول، وبكلتا يدي بدأت في ضرب الرسومات، بدأت أضربها وأُهشّم التمثال، وأنا أصرخ بقوة، بعنف، أضرب ثم أصرخ، أضرب ثم أصرخ، أعرق برغم البرد والملابس المتقطعة ولا أبالي، أضرب وأنا أرى أمامي أربعين عامًا لا فائدة منها، أضرب وأنا أتذكّر بيتي وطلبة الجامعة، أضرب لأرى أمي وأبي، أضرب فأرى يعقوب يُقبّلني، أضرب لأرى نفسي في المرآة أتزيَّن لأُقابل نيكولا، تندثر الرسومات وأنا أضرب بقوة، أبتلع ريقي فلا أجد ما أبتلعه فأضرب، بكيت، بكيت بحرقة، بكيت كثيرًا.

رميت المعول ثم صرخت بكل قوة:

– أين أنت يا إلهي؟ لماذا تتركني هنا ولا تكترث؟ ماذا فعلت لكي تحبسني هنا؟ في دولة غير دولتي؟ مع اثنين أكرههما؟ أين أنت؟

سمعتُ صوت يعقوب من خلفي يقول:

– اصرخي يا ليلى، فالربُّ لا يبالي، لم يسمعك أحد ملائكته، اصرخي لمئة عام.

قلت وأنا لا أنظر له:

– دعني وشأني يا يعقوب، لديك عمل لتقوم به اذهب لتكمله.

قال:

– لقد انتهينا وأرسلني صامويل للبحث عنك.

ثم اقترب مني وسلّط الكشاف على الأرض.

قال:

– أوووو لقد كسّرتِ الكثير من الحجارة، كم أنتِ ماهرة يا دكتورة!

قلت بعصبية:

– لا تقل لي يا دكتورة، أنا ليلى فقط، دكتورة مُحاصرَة في كهف لا تساوي شيئًا.

قال:

– حسنًا يا ليلى، احملي الصخور وأعطيني بعضًا منها، وهيا لنرجع.

مسحت دموعي ولممتُ ما أقدر على حمله، وحمل هو الباقي، ورجعنا.

كان صامويل عاري الصدر، وكان يحفر حفرة صغيرة ليبدأ ببناء عازل صغير للنوم.

قلت لصامويل بصوت مبحوح:

- صامويل، لقد نسينا أهم شيء، أين نقضي حاجتنا؟

قال:

- بسيطة، احفري كالقطط.

قلت:

مستحيل، لم أفعل هذا.

قال:

- هذا كل ما لدينا، هل نبني لك مرحاضًا وقاعدة؟

قال يعقوب:

- أتمنى من كل قلبي.

قلت:

- لا، ولكن على الأقل نتصرّف، أنا أريد أن أقضي حاجتي، لا توجد حتى مناشف للغسل، ماذا أفعل؟

قال صامويل:

- هناك الكثير من الصخور، فلنحفر حفر صغيرة بعيدًا لقضاء الحاجة، ونحيطها بحائط صغير، واستخدمي بعض الأوراق التي معك، علينا أن نتحمل كل هذا حتى نخرج من هذا المأزق حبيبتي.

كنتُ على وشك أن أموت بالسكتة الدماغية بسبب اندفاع الدم في رأسي.

قال يعقوب وهو يشير إلى شيء ما:

– ليلى، أترين هذا الممر؟

قلت:

– نعم أراه ماذا به؟

قال:

– هناك على بُعد عشرة أمتار برز في الحائط يشكّل ما يُشبه الغرفة الصغيرة جدًّا، لقد حفرت حفرة صغيرة منذ قليل، ليكون هذا حمّامنا، انظري بنفسك.

ذهبتُ إلى هناك، مظلم هو، ولكنه مناسب جدًّا لما نريده، ظللت أكثر من نصف الساعة أتمنى أن يخلق لي ربي مخرجًا فلا أضطرُّ إلى هذا التنازل، ولكن شيئًا لم يحدث، وقد كان.

أخذت بعض الأوراق، وقررتُ أن أقضي حاجتي فيه، كانت لحظات قاسية فعلًا، كنتُ أضرب بيدي في الحائط بقوة حتى نزفت من الانكسار الداخلي لديَّ.

استخدمت الأوراق، وبقدمي وضعت الرمال ودفنت ما أخرجته، ورجعت وعلى وجهي آثار القهر وذُل النفس.

قال صامويل:

– تماسكي يا ليلى، فأنا لديَّ أمل.

كان صامويل، ويعقوب قد أشعلا النيران فعلًا، وكانا يحاولان تسخين الطين لتثبيت الحاجز الحجري الصغير الذي سينامان بداخله، أخذا يقلّبان الطين ويسخنانه حتى بدأ في التماسُك قليلًا ثم دهنا به الأحجار لتثبيتها، وقد نجحا فعلًا بالرغم من أني شككت في نجاح الفكرة.. أصبح الحاجز قويًّا فعلًا، كل هذا وقد بدأت الشمس في المغيب فعلًا.

قال صامويل:

– أظن أنه وقت الطعام إذن، يعقوب.. أخرج لنا المعلّب وبعض المياه.

أخرج يعقوب ما لديه وشرعنا نأكل، أعطاني صامويل نصف حصّته من المعلّب وقال:

– تستحقينه يا ليلى، أنا لستُ جائعًا جدًّا وأنتِ قد تعبتِ فعلًا، كُلي واشربي.

نظرتُ له وابتسمت بانكسار، فابتسم بدوره ثم فرد ظهره على الأرض، وقال بصوت هادئ:

– أشتاق إلى كأس من النبيذ.

قال يعقوب وقد فرد ظهره بدوره:

– وأنا أشتاق إلى مضجعي.

قلت:

– أما أنا أشتاق إلى الهواء الطلق، لرائحة الزهور وأصوات الطلبة ودولابي، أشتاق إلى كثيرٍ من الأشياء.

ثم فردت ظهري أيضًا على الأرض بشكل صعب نظرًا لضيق المساحة.

قال صامويل:

– حسنًا، أيُّنا سيستيقظ الليلة ثم ينام نهارًا؟

لم يجبه أحد فقد كنتُ متعبة فعلًا وأريد النوم.

قال صامويل:

– حسنًا أنا سأنتظر الليلة، أريد أن أبحث عن مخرج قليلًا.

قال يعقوب:

– لديَّ سؤال.

أشرنا له بالكلام فقال:

– لماذا لا توجد حيوانات هنا؟ أو زواحف؟ أو أي أحياء إلا الشجرة هذه؟

قال صامويل:

– سؤال جيد يا يعقوب.. أنا أيضًا مندهش، على الأقل قندس أو ثعبان أو أي شيء، حتى الحشرات هنا منعدمة، كان هناك صراصير عند مدخل الكهف، لكن هنا لا يوجد أي شيء.

قلت:

– ربما لأننا انخفضنا كثيرًا عن مستوى الأرض فهجرته الأحياء.

قال يعقوب:

– هناك صراصير تعيش في القطب الشمالي وبداخل البراكين، ليلى لقد وجدوا صراصير بداخل مفاعل تشيرنوبل المنفجر، لماذا لا يوجد هنا؟

صمتنا فقلت:

– والأغرب أننا نرى السماء ولا نرى طيورًا فوق فوهة الكهف..هل هذا طبيعيًّا؟

قال يعقوب:

– نحن في العراق، ربما بعض أنواع الطيور لا تطير هنا على ارتفاع شاهق لتحلّق فوق فتحة الجبل.

بدا لنا التفسير منطقيًّا وصمتنا، مع أن الرد لا يفسّر لنا كيف اختفت الصراصير، سبقني صامويل وقال متسائلًا:

– وكيف اختفت الحشرات إذن يا ذكي؟

أومأ برأسه ولم يرد.

قلت:

– ولماذا نحن مهتمان جدًّا بالحشرات يا فتيان؟ إنه لشيء جميل أننا لا نصارع الحشراتِ هنا، على الأقل المكان نظيف فعلًا،

كانت الشمس قد بدأت في الغروب فعلًا وهو وقت النوم لنا، نريد أن نلحق الشمس منذ شروقها حتى نعمل أكبر وقت ممكن في الضوء، لا نريد أن نضطر لاستخدام الكشّافات التي لدينا.

اعتدل يعقوب يحاول أن يُطفئ النار الموقدة حتى ننام، فاعترضت على هذه الفعلة وقلت:

– الجو بارد يا يعقوب اترك النيران قليلًا.

نظر لي يعقوب نظرة غير مفهومة، ثم ترك النار موقدة وأخذ موقعًا للنوم بحيث يكون ناظرًا لي، ثم بدأ غطيطه في التصاعُد رويدًا رويدًا، تواريت قليلًا خلف الحائط الصغير الذي بنيناه، وحاولتِ النوم.

آه من إحساس الوحدة والضعف، كنتُ أنظر إلى الحائط الواهن الذي بناه الرجلان، ليس طويلًا جدًّا ولا يُداري كثيرًا، قدماي حتى أعلى الركبة واضحتين تماما ليعقوب، وهذا ما أثار حفيظتي قليلًا، بالطبع ملابسي مقطعة ومفاتني ظاهرة للعيان، ولكننا في موقف يستحيل فيه الشعور بالإثارة الجنسية أبدًا.

أو ربما ظننتُ هذا، أنا جميلة جدًّا في نظر الرجال بفعل الهرمونات بالطبع، وبالرغم من كثرة القاذورات هنا وجسدي الأبيض الذي

تحول للرمادي، ولكنني الأنثى الوحيدة هنا، ترى هل أنا فقط من أفكّر في هذا؟

فجأة أيقنت أن صوت غطيط يعقوب قد اختفى، وصامويل ليس هنا بالطبع فهو يبحث عن مخرج ما.

راودني الشكُّ، أخرجت رأسي لأتجاوز الحائط قليلًا ونظرتُ في اتجاه يعقوب.

– هل جُننت؟ أم أنه ينظر إلى ما يظهر من جسدي في ثبات؟

أخ، الظلام اللعين، هذا السجن الأبدي، هل أُصبتُ بالبارانويا أخيرًا؟

لا أعلم، هل ينظر لي بشهوة كما أتوقّع أم أنه نائم فقط.

قلت من وراء الجدار:

– يعقوب، هل أنت متيقظ؟

لم يرد، فقلت بصوت مرتعش:

– يعقوب؟

لم أتلق ردًّا، هذا الصمت، يكاد يقتلني، حرّكت رأسي للوراء قليلًا ونظرتُ ثانية.

آه يا إلهي! أين ذهب؟

فجأة من أمامي قال:

- أكنتِ تُنادين يا ليلى؟

صرخت.. صرختُ عاليًا وأنا أُداري جسدي بيدي بحركة لا إرادية.

فزع يعقوب ورجع إلى الوراء في خطوات هستيريةٍ وقال:

- ماذا؟ أنتِ من ناديتِ عليَّ أقسم بروح الرب.

قلت:

- لقد.. لقد أفزعتني يا يعقوب، نحن في الظلام هنا، أرجوك لا تظهر فجأة هكذا.

قال يعقوب:

- ماذا كنتِ تريدين؟

قلت بتوتر:

- أنا.. أنا..

قال:

- ماذا؟

قلت:

– أنا عطشى، أريد بعض المياه.

نظر لي بخُبث، ثم قال:

– حسنًا، ولكنها مخصومة من حصّتك للغد.

قلتُ بلا اكتراث:

– كما تشاء.

رجع إلى مرقده ثم أخرج زجاجة صغيرة، وأعطاني إياها وهو ينظر حوله في خوفٍ.

قلت وأنا أتناول الزجاجة:

– لماذا أنت خائف هكذا؟

قال:

– لستُ خائفًا.

قلت:

– يعقوب، نحن في ظلام حالك فيما عدا بعض عيدان النار، ولكن عينيك مفضوحتان، لماذا أنت خائف؟

قال:

– راودني كابوس ما يا ليلى.

قلت:

- أنا أسمعك يا يعقوب، قُصَّه عليَّ.

قال:

- لا، لا أريد، علينا أن ننام، علينا أن...

قلت:

- يعقوب، إذا ما هَرّبت مني فلم تجد من تتكلم معه، إلا إذا كنت تريد أن تتكلم مع صامويل عند عودته.

صمت برهةً، ثم جلس بجانبي، وقال:

- حسنًا سأقول لك، ولكن عديني.

قلت:

- بماذا أعدُك؟

قال:

- بأنك لن تفهمي كلامي بشكل خاطئ.

قلت:

- أعدك.

قال والتوتر يزداد:

– حلمتُ أنني هنا في الكهف، وصامويل يمسك رأسه وهو يترف ولا ينظر لنا، وكنت.. وكنت..

قلت:

– كنتَ ماذا؟

ابتلع ريقه ثم قال:

– كنتُ أغتصبُك يا ليلى، أغتصبُك بشدة.

فتحت فمي وتبدّلت ملامح وجهي كثيرًا، فأمسك بيدي وقال:

– لا أتمنى أبدًا أن أفعل هذا.

كانت يدي ترتعش، إن ما يراودني هي علامة إذن، أنا لم أُجنّ، دفعت يده وتراجعت مِقدار خطوة وأنا أضع يدي على ما يبرز من صدري، ثم قلت له:

– عُد إلى النوم يا يعقوب، وحاول أن تتحاشاني، أعلم أنه حلم، ولكن أُقسِم بالله أنني سأقتلك إذا ما عملت على تحقيقه.

قال:

– ألم ننتهِ من نغمة أنت يهودي وأنا أكره اليهود هذه؟

قلت وقد بدأت الدماء تغلي في رأسي:

– اذهب يا يعقوب، أعط ظهرك لي واذهب.

نظر لي طويلًا جدًّا، جدًّا، ثم إنه ذهب إلى مضجعه وقرَّر أن ينام.

كانت ليلة صعبة جدًّا مليئة بالنوم المتقطع، أنام دقائق ثم أستيقظ، وهكذا.

طوال هذه الليلة لم أسمع غطيط يعقوب، لقد كنتُ شديدة معه فعلًا ولكن عليه أن يكفَّ عن أحلامه ورغباته هذه.

لم أكن أعلم ما سيحدث بعدها ويا ليتني عرفت.

***

الرقيب صامويل فرانكلين

كنتُ أسمعهما يتكلّمان ولا أبالي، فليقولا ما يقولان، سمعت كل ما قاله يعقوب عقب صرخة ليلى، ولا أبالي أيضًا.

فليحلم كما يشاء، حتى وإن اغتصبها فعلًا، نحن ثلاثة هنا، لا يربطنا أي شيء إلا الأمل في النجاة، فليغتصبها إن أراد أو لتقتله هي، علينا أن نخرج فقط.

كنتُ بعيدًا عنهم،ولكن نحن في كهف، الصوت يصل عبر الكهف وممراته كلها، ونحن ثلاثة أحياء في كهف واسع فقط، ليس هناك حشرات حتى، ولكن لماذا أتدخل؟ أنا لا أُخطّط للعيش هنا للأبد، فليفعلا ما يفعلان، فليقتلا بعضهما البعض.

تجاهلتُ أصواهما وقررت البدء في البحث عن سبيل للخروج، كيف سأخرج بحق المسيح؟

حفرة؟ نحن في مركز الجبل وللآن لم يخترعوا حفرة طلوعًا لا نزولًا.. فلننسَ أمر الحفر إذن.

جاءتني فكرة، ربما أشكّل بروزًا في الحائط بطول الجبل للتسلّق، ولكن كيف سنتسلق مئات الأمتار؟ حتى أنا من تلقيت التدريب لا أستطيع التسلق كل هذا، وإن تسلقت كيف سأحفر البروز فوق؟

اممممم..

تحسّستُ الحائط، ربما هناك جدار ضعيف أستطيع تشكيل فجوة به للخروج، ظللتُ أبحث بالكشّاف وبيدي، كلها صخور صلبة، أخ يا ليتني اصطحبتُ معي جهاز الإرسال ولم أتركه في السيارة مع الوغد وليد.

أاااااخ.

ماذا أفعل؟ حتى إنني لن أستطع الوصول إلى المخرج الأول ومحاولة الحفر، الطريق إليه شبه مستحيل، إنني يائس.

ظللت أتحسّس الحائط آملًا في أي شيء، حتى لامست يداي تجويفًا في حائط الكهف، صخور لينة ربما كانت من صنع بشري ما في عصر من العصور، فالعراق قديمة قدم الأزل.

هذا طين متحجّر، أكاد أجزم أنه طين. ليس بصخور طبيعية أبدًا،

أخذت الكشّاف وسلطّته على الموقع، نعم بالفعل، هو تكوين طيني مبتل بالماء، هل هي مياه جوفية؟ ربما، رائحته نفّاذة قليلًا.

أخذتُ المعول اليدوي وضربت الحائط، هو طين بالفعل، ضربت أكثر وأكثر، كانت لينة قليلًا وتتفتت بسهولة، ظللتُ أحفر.

ثم راودني شيء ما، فحررتُ قطعة صغيرة من الطين واحتفظت بها وظللتُ أحفر وأحفر، أنه أمل الخروج، يكبر ويكبر بداخلي، إذا ما كان هذا الجدار هكذا إلى نهايته فسنخرج في النهاية.

ربما كان هذا شلّالًا في نهر دجلة مثلًا، أو نفقًا قديمًا بناه الآشوريون.

لا أهتم، المهم أن أخرج في النهاية.

مرت ساعات وأنا أعمل حتى أنهكت وخارت قواي، كنت قد كوّنت ممرًا صغيرًا بطول متر ونصف، وهو تقدّم باهر فعلًا.

انتهيت، ومسحت على المعول، وقررت تعليم المكان حتى لا أنسى مكانه فأخذت المعول ورسمت خطًّا حتى حدود الحديقة الصغيرة على الأرض.. سيسهل عليَّ معرفة المكان غدًا.

عدتُ فوجدتهما نائمين بلا صوت يُذكر، تحت عين ليلى تنظر لي.

آه لقد تغيرت عيناها تمامًا، هناك سواد بارز تحت عينها من كثرة الإنهاك، هالة دائرية كاملة وإن احتفظت بفتنتها.

نظراتها أصبحت حادة فعلًا، لقد أوشكت ليلى على الجنون فعلًا.

تنظر لي في ثبات ولا تتكلم.

قالت لي:

– أين كنت كل هذا يا صامويل؟

قلت:

– كنتُ أبحث عن مخرج يا ليلى.

قالت:

– ووجدته؟

صمتُّ قليلًا ثم قررتُ أن أحتفظ بالسِّر لنفسي. قلت:

– لا ولكني سأعاود البحث غدًا.

بدا على وجهها علامات الخيبة، ثم قالت:

– حسنًا أنا أعلم أننا لم نخرج من هذا الوكر النتن، أنا ذاهبة إلى الحمام.

قلت:

آه يا ليلى، تحتاجين إلى النوم فعلًا.

قالت في عصبية:

- كيف أنام ويعقوب يغطُّ كالخنزير؟ ثم كيف أنام وأنا سأستيقظ هنا ثانية؟

ثم أعطتني ظهرها، وتحركت خطوتين، ثم إنها رجعت ثانيةً ونظرت لي نظرة مجنونة حقًّا ثم قالت:

- أنتما تدبّران شيئًا ما، أليس كذلك؟

قلت:

- آه يا إلهي! تحتاجين للنوم يا ليلى.

قالت:

- أعلم أنكما تريدان أن تقتلاني، تتآمران عليَّ، ولكني لن أعطي لكما الفرصة ما دامت هاتان تعملان.

ورفعت قبضتيها مهددة، ثم ذهبت.

لقد جُنت ليلى، بالفعل.

ثم تذكرت، أخرجت قطعة الطين ثم قررتُ أن أُجرّب ما كان يُراودني منذ رجوعي.

عليَّ أن أُطلع يعقوب إذن.

أيقظتُ يعقوب وكان يغطُّ في النوم فعلًا، هززته سريعًا فأفاق وهو يقول:

- ليلى تعالي.

قلت:

- أتحلم بليلى ثانيةً؟

قال وهو يُفيق:

- لا أعلم لماذا أنا مُغرم بها، أشعر أنها تحقُّ لي، لقد قبّلتني عندما كنا هناك، لن أنسى قُبلتها أبدًا.

قلت:

- حسنًا، استيقظ، أُريد أن أخبرك بأمر ما.

قال:

- قل سريعًا.

قلت:

- أترى هذا؟

ثم رفعت قطعة الطين في يدي.

أخذها يعقوب ليتفحصّها بين أصابعه ثم قال:

- قطعة من الطين.

قلت:

- ضعها على أنفك واستنشق.

فعل كما قلت له، فانكمش أنفه ثم قال:

- رائحتها نفّاذة جدًا.

قلت:

- وماذا فهمت إذن ايها الجرذ؟

قال:

- لا أعلم، سماد عضوي؟

قلت:

- غبي أنتَ، أخرجْ لي قداحة مما معك وسأُريك، سريعًا قبل عودة ليلى.

نظر لي غير فاهم ثم أخرجَ قداحةً، وضعت قطعة الطين على الأرض، ثم أشعلت بالقداحة.

فوووووش.

لقد اشتعلت كلها كما تخيلت تمامًا واضعة قطر نصف دائرة من النيران حولها.

نظر لي يعقوب بابتسامة ثم قال:

- بترول؟

أشرتُ برأسي موافقًا، ثم قال هو:

- وماذا سنفعل به؟ لا يوجد منفذ للبيع هنا في هذا الكهف، جُل ما نفعله هو أن نشربه، هذا إذا ما أخرجناه بأيدينا.

ضربته على كتفه بعنف وقلت:

- هذا هو سبيلنا للنجاة يا غبي.

قال:

- وكيف هذا؟

قلت:

- هل رأيت كيف اشتعلت قطعة صغيرة بقوة؟ هناك جدار كامل مليء بالطين والبترول بداخله، إذا ما أشعلناه سينفجر ويشكّل فتحة كاملةً للخروج.

ابتسم يعقوب ابتسامةً عريضةً وقال:

- وماذا ننتظر؟

قلت:

- ومن سيشعله؟

قال:

فلنصنع فتيلًا ونشعله من بعيد كما يفعلون بالخارج.

قلت:

- الحائط بداخل الممر على بُعد عشر دقائق من هنا، والممر ليس به أكسجين كافٍ ليشعل فتيلًا، ثم كيف سنصنع فتيلًا؟ من أوراق

الشجر؟ أم من الطين؟.. حتى إذا رصصنا الطين في خطٍّ مستقيم، سينفجر ولن يشتعل، وسيهد الممر فوق رؤوسنا.

عقّب يعقوب وعقد حاجبيه ثم قال:

– كيف سنشعله إذًا؟

قلت:

– ليلى.

قال بتوتر:

– تريدها أن تشعل الجدار؟ كيف؟ ولماذا؟

قلت:

– أتريد أن تخرج أم لا تريد؟

قال:

– أريد بالطبع، ولكن، ليلى ستنفجر، النيران ستقتلها.

قلت ليعقوب وأنا أنظر له:

– يعقوب، أنت تحبها؟

قال:

– نعم أحبها.

قلت:

- لا، أنت تريد أن تمارس الجنس معها فقط، تريدها لك، تريد أن تتذوقها، عيناك كلهما رغبة وليس حبًّا. لقد قرأتها في عينيك منذ الوهلة الأولى.

صمت ونظر في الأرض فأكملت:

- إما أن تموت هي أو نموت نحن، لا يوجد خيار آخر.

قال:

- والعهد المقدس؟

قلت:

- سنخترقه، الضرورات تبيح المحظورات.

قال بصوت مبحوح:

- وكيف سنقنعها إذن؟

قلت:

- انتظر وسترى، ولكن عاهدني على كتمان السر، والتعاون معي على الخروج.

قال:

- أُعاهدك.

قلت بخُبث:

– وأنا أعدك بأنك ستتذوقها، فقط عندما يحين الليل اتبعني وسأشرح لك.

قال:

– حسنًا لك هذا، اتفقنا، ولكن هل..

قلتُ سريعًا، وأنا ألمح ليلى ترجع:

– اخرس الآن ونتقابل بعد الفطور، ليلى قد أتت.

ظهرت ليلى بملامحها التي تبدَّلت وصارت تشكُّ في كل شيء، نظرت لنا نحن الاثنين ثم اقتربت من عين يعقوب وقالت:

– ماذا تدبّران؟

لم نرد وقلت أنا:

– هل سنفطر؟

نظرت ليلى طويلًا إلى وجهينا، كنتُ أخاف أن يتفوَّه هذا الجرذ بشيء ما، ولكنه يستطيع بوجهه هذا أن يكذب.

قال:

– وقت الفطور، وراءنا عمل كثير اليوم.

نظرت لنا فتحاشينا نظراها،وقفز يعقوب سريعًا إلى حقيبته ليخرج معلّبًا وزجاجة مياه، وشرعنا نأكل.

نظرت ليلى إلى يعقوب لتجده لا يأكل، فقالت:

– لماذا لا تأكل يا يعقوب؟

قال:

– لا أريد.

قالت:

– أنتَ تفكّر فيّ، أليس كذلك؟

قال:

– ما هذا الذي تقولينه يا ليلى؟ أنا فقط تؤلمني معدتي قليلًا وسآكل بعد حين.

قلت:

– ليلى، اهدئي قليلًا، نحن فريق تذكري هذا.

نظرت ليلى في عيني كثيرًا وقالت:

أُقسم أنك تُدبّر شيئًا ما، وسأعرف قريبًا.

ثم أخذت رشفة ماء، وقامت لتحمل معولها وشرعت في الذهاب، فقلت:

- ماذا تفعلين يا نيلي؟

قالت:

- سأكمل تكسيرًا في الحائط لآتي بالحجارة مثلما فعلت البارحة.

قلت:

- لا، أنتِ مُرهَقة، فلتنامي اليوم وسأعمل أنا ويعقوب مكانك.

قالت:

- هل نزحت النخوة عليكما أخيرًا؟ لم أقابل في حياتي يهوديًّا يفكّر في مصلحة مسلمة.

قلت بعصبية:

- ليلى، تذكّري القسم المقدس، إذا ما عاودتِ إلى التحدث بهذه الصيغة سنطردك.

نظرت لنا ثانيةً ثم قالت:

- حسنًا، لا أبالي، فلتعملا وسأنام أنا، هيا اذهبا.

أشرتُ إلى يعقوب نظرة مفهومة، فأخرج كشّافين ومعولين، ثم تحرّكنا.

أما ليلى فأقسم أنها لم تغفل وقتها قط، لقد أُصيبت بالبارانويا في يومي حبسٍ فقط، وهو ما فكّرت أن أستغله لصالحي.

تبعني يعقوب، وأنا أُسلّط كشّافي على الأرض، وسرنا نحو عشر دقائق على الخط الذي رسمتُه.. حتى وصلنا إلى الممر القصير الذي حفرته، تركني يعقوب ونظر إلى الحفر مليًّا، كان مندهشًا جدًّا.

قال وهو يتلمّس الحفر:

– آه يا أرض العرب، يا أرض بابل، أرضك الغنية بالذهب والبترول.

ثم نظر لي وقال:

– هل تعلم أننا إذا كنا بالخارج لصرنا أبطالًا؟ بل أغنياء جدًّا أيضًا؟

قلت:

– الحياة أثمن من حفنة من الزيت يا يعقوب، قل لي بماذا سنستفيد إذا قُتلنا من الجوع هنا ومعنا مئات البراميل من البترول؟

قال:

– ألا توجد طريقة أخرى؟

قلت:

– يعقوب، انظر حولك، هل تجد حولنا مخرجًا؟ حوائط صمّاء، ليس هناك إلا ما قلتُ لك بالداخل.

قال:

- ولكن علينا أن نبحث عن طريق آخر، نريد أن نخرج معًا،

قلت:

- حسنًا، ابحث أنت عن مخرج وسأنفذ خطتي مع ليلى، وأنت فلتظل هنا ولتستمتع بالمعلّبات التي شارفتْ على الانتهاء.

صمتَ برهة، ثم قال وهو يبتسم:

- حسنًا، فلتذهب هي للجحيم،قل لي يا صامويل كيف سنُقنعها؟

قلت:

- سنُجبرها، وعليك ان تفعل كما آمرك، إذا ما كنت تريد استنشاق الهواء النظيف مجددًا.

قال:

- حسنًا أنا معك، ولكن عليك أن تعدني بأني سأتمكن منها قبل أن تفعلها.

قلت:

- كلامي لا يتغير يا يعقوب، وهو وعد مني، ستكون لك.

ابتسم، ثم تحسّس الحفر ثانية، وهو يقول:

- يا لكمية البترول، أخ لو كنت بالخارج!

ثم قال لي، وهو يضحك:

– عندما تقتل ليلى ربما وجدنا البترول في مكان آخر هنا، وسنصبح غنيَّين.

ابتسمت بدوري.

فجأة، جاء صوت ليلى من خلفنا وهي تقول:

– عن أي بترول تتحدثان يا خونة؟

نظرنا خلفنا، فإذا بليلى تقف وراءنا بالضبط، وكانت مخيفة فعلًا.

يا لها من مفاجأة!

***

الصحفي يعقوب جريفمان

يا له من مشهد مُرعبٍ فعلًا، المخطط الذي كنا نخطط له أنا والرقيب سيفشل هكذا.

لم نكن نتوقع أن ليلى تراقبنا، عندما سمعتُ صوتها قتلني الرعب فعلًا، ظهرت من الخلف فجأة حتى كاد قلبي يقفزُ خارجًا من فمي، لم تتحمل قدماي الموقف فجلستُ على الأرض.

كانت ليلى تحمل معولها وتقف في وضع هجومي، تستخدمه كسلاح.

تداركَ صامويل الموقف، وقال وهو يرفع ذراعه ليحاول تهدئة الموقف:

– ليلى، ماذا دهاكِ يا حبيبتي؟

قالت:

– إليك عني وتراجع أيها القذر، كنتُ أعلم أنك تدبّر شيئًا ما أنت وهذا اليهودي.

قال وهو يقترب:

– أُدبّر ماذا يا عزيزتي؟ ولماذا لم تنامي إلى الآن؟

قالت:

– لأن الله أرادني أن أكشفكما، وهأنا قد فعلتُ.

قال صامويل:

– وماذا كشفتِ يا ليلى؟

صمتت برهةً ثم قالت:

– سمعتُ هذا القذر الخبيث يعقوب يقول إنني سأُقتل وستجدون بترولًا ما، وأنا الذي وثقت به واعتبرتُه أخي.

قال صامويل:

– هذا فقط؟

قالت:

- نعم وتراجع وإلا قتلتُك.

قال:

- حسنًا هدّئي من روعك نحن كنا.. كنا نتكلم بوجه عام، ولو كنتِ جئتِ قبلها لسمعتي يعقوب وهو يتحدث عن قتلنا كلنا واحدًا وراء الآخر.

تراجعت ليلى وقالت:

- لا أصدقكما.

قال صامويل:

- هذه هي الحقيقة يا دكتورة.

قلت أنا، وقد بدأت أهدأ:

- وماذا سنستفيد من قتلك يا ليلى؟ المنطق يقول أن تظلي على قيد الحياة للمساعدة.

صمتت، ثم اقتربت ونظرت لي في عينيَّ بحدة، يا إلهي لقد أصبحت مرعبةً فعلًا.

ثم نظرت لصامويل وقالت:

- حسنًا ستبقى أنت يا صامويل، ولكن يعقوب لن يبيت في الحديقة اليوم.

قال صامويل:

– ولكنه قد يقتل وحده هنا.

قلت:

– هذا ليس عدلًا، إنها أرضي أنا وأنا من دخلتها أولًا.

قالت:

– لا هي أرضي أنا من الآن، ومن قبل أيضًا، العراق كلها لي أنا عربية، وستبيت بالخارج يا يعقوب حتى اهدأ قليلًا.

قال صامويل:

– حسنًا يعقوب سيبيت مشتتًا هنا.

ثم نظر لي نظرةً مفاداها الصبر، فصمتت.

ثم قلت:

– ولكن هذا ليس عدلًا، أرض الحديقة المقدسة من حقي أنا.

قالت ليلى:

– حسنًا، فلتأتِ، ولكن أقسم بالله إن أتيت لأقطع يدك بالمعول.

ثم لوّحت به في الهواء.

أكرهها وأكره العرب أكثر مما أكره هتلر، مغرورون بالفطرة، يتصنعون القوة، وهم أضعف أنواع البشر.

إذا ما وصلوا إلى السلطة، وسار لهم التحكم في مصائرنا، لعذبونا وأهانونا.

ها هي ذي ليلى البربرية، عندما سارت في موضع قوة طردتني بمعول.. مع أن الأرض أرضي، ومن حقي أنا.

المسلمون دائمًا هكذا، متخلّفون بالفطرة، دمويون.

حسنًا، قررت أن أبيتَ ليلتي هنا وحدي، على أمل أن ينفّذ صامويل وعده. وقد كان.

أسندت ظهري إلى الحائط، وأنا أسب وألعن اليوم الذي قررتُ أن أوافق على الذهاب في هذه الرحلة الشنيعة. وشاء القدر أن أنام فعلًا.

لم أدرِ كم من الوقت قد نمت، ولكني صحيت على من يهز جسدي بعنف. فزعتُ وأمسكت الكشاف سريعًا، ثم تراجعت للوراء وأنا أقول: من؟

كان صامويل، قال لي هامسًا:

- اخرس وأفقْ سريعًا.

كان وجه صامويل القبيح يظهر في دائرة الضوء، وكان يعضّ على شفته ويحمل حقيبتي.

أفقت، وأشار لي لأتبعه.

سِرنا في الممر الطويل قليلًا حتى ابتعدنا عن مكان الحفر.

قال لي:

– لقد نامت الشيطانة أخيرًا.

قلت:

– إنها لعنة وستصيبُنا، هل رأيت؟ لقد طردتني يا صامويل، طردتني، بل هددتني بقطع يدي.

قال:

– لا تخف واصبر، انظر ماذا اصطحبت معي؟

قلت:

– ماذا؟ حقيبتي؟

قال بشغفٍ، وهو يمرّرها لي:

– نعم، أنت تتحكم في الطعام حسب العهد المقدس، وبدونك لن نعيش، وأنا سأقنعها بعودتك، لا تقلق طالما أنا هناك معها.

قلت:

– أواثق بهذا يا صامويل؟

قال:

– ألا تريد العودة؟ عليك إذن أن تثق بي.

قلت:

– أنا لا أثق إلا بنفسي يا صامويل، نفسي وكفي.

قال:

– حسنًا فلتظل هنا إذن، وها هي ذي حقيبتك، انتظر حتى أقنعها بعودتك وعندئذ سنبدأ خطتنا، وسنخرج يا يعقوب.

تنفسّت الصعداء بعد أن قال إننا سنخرج، إنه الأمل، الأمل الذي من أجله سنعيش.. إنني لمندهش حقًّا، بالخارج كان سقف أحلامي يعانق عنان السماء، أحلم بوطن إسرائيل العظمي، أحلم بالنساء، أحلم بالأموال، أحلم برئاسة الكنيست، كان هدفي أن أكون عضوًا فعّالًا في المجتمع فعلًا، أن أُغيِّر العالم، أن أطير في السماء فاردًا ذراعي كالطيور كما تفعل اللقالق في جنوب إسرائيل، كما يهاجر البط إلى الشمال من ثلوج الوطن، كنتُ حرًّا.

أما الآن، فأحلم بالخروج، أحلم بمياه نظيفة، أحلم بوجبة بسيطة أكثر قليلًا من معلّب أتقاسمه مع اثنين، أحلم بأن أستنشق الهواء الطلق، بمداعبة الأمطار لوجنتي، سقف أحلامي يتقهقر ليلامس أرض الكهف.

كنتُ منذ فترة مقتنعًا أن الأحلام نور، وأن النور لا يسجنه سور، ولكن يبدو أنني على خطأ، فالأحلام تتكيف على الوضع، يصبح الخيال محدودًا بداخل القفص فلا تستطيع القفز خارجًا، الأحلام حرة

كأصحابها، ولهذا لا نرى أدباء كثيرين داخل أسوار السجون، هأنذا أحلم بالعودة إلى الحديقة الصغيرة لا حتى الخروج من هذا الكهف.

أي رب أنجِني.

قلتُ وأنا أداعب أفكاري:

– حسنًا، أوافقك يا صامويل، سأنتظرك.

قال:

– حسنًا، لا تصنع أي أصوات أبدًا، وغدًا ستبيتُ في الحديقة.

ثم تركني ورحل.

هناك سؤال راودني في شكّ، لماذا يساعدني صامويل؟ هل سار صديقي فجأة؟ ومنذ متى أحبني ذلك الرقيب المسيحي؟ ألم يكن هتلر مسيحي أيضًا؟

ربما نقص الأكسجين قد آثر قلبه ورقرق تجاهي، لا أعلم ولكن علي أن أكون حذرًا. هدفنا الخروج فقط، ولتكن مشيئة الرب.

***

الدكتورة ليلى الشمري

هما يخططان لقتلي، ولا شك في هذا، الله وحده يشهد، ولكن لماذا يريدان قتلي؟ هل قتلي سيخرجهما من هنا؟ أنا لستُ مفتاح الخروج ولا أحمل صكّ غفران لهما، ولا بقتلي سيخرج لها جني يطلبان منه اللجوء، ولا سيوصلان في قدمي وصلات كهربائية للتواصل بهواتف الخارج. أنا لا أعلم، ولكنهم ولا شك قد جُنّا ويريدان قتلي.

لم أستطع النوم قط، كيف يغفل لي جفن وأنا أعلم أنني سأُقتل؟ وأن قاتلي بجانبي؟ يعقوب بالخارج يخطط ليتهجّم عليَّ ثم يغتصبني، ربما يخطط لقتلي وممارسة الجنس مع جثتي، وها هو ذا صامويل قد عاد ويظنني نائمة، ينظر لي وأشعر بنظراته تخترق جسدي الواهن.

لماذا يا صامويل؟ وأنا الذي وثقت بك.

لقد جلس بجانبي، ثم فرد ظهره ونام، أين كنتَ يا صامويل؟ وكيف تستطيع النوم بقلب فاتر بجانبي وأنت تعلم أنك ستقتلني؟

عقلي سينفجر من كثرة التفكير، لقد فاض بي،

قلت:

– صامويل، أين كنت؟

لم يرد.. التفتُّ وهززته وأنا أُمسك بمعولي.

قال بصوت خفيض نائم:

– ماذا تريدين يا ليلى؟

قلت:

– رُدَّ عليَّ، أين كنت؟

قال:

– ليس هذا من شأنك، أنتِ لستِ رئيستي.

قلت:

– قل لي أين كنت وإلا...

قال:

- أنت لا تستطيعين تهديدي يا ليلى وتعلمين أنني لا أخاف، ولكن، كنت أبحث عن المخرج يا ليلى، هل تريدين العيش هنا بقية حياتك؟

قلت:

- ولماذا أخذت معاك حقيبة يعقوب؟

اعتدل وقد بدأ يتوتر بالرغم من أنه يستطيع التمثيل جيدًا، قال:
- لقد طلبها يعقوب، وقد أعطيته إياها.

قلت بعصبية:

- ألا ترى أنك بهذا ستميتنا جوعًا وعطشًا؟

قال:

- ليلى، هل نسيتِ العهد المقدس بيننا؟

"أشار إلى الشجرة".

قلت:

- العهد المقدس يلزمه إعطاؤنا الطعام والشراب يوميًا.

قال:

- ويقول أيضًا إن الطعام من اختصاصه،وهو فقط من يستطيع أن يعطينا الزاد يا ليلى، أرجوكِ أن تنامي ونتحدث صباحًا.

قلتُ، وقد غلَتِ الدماء في عروقي:

- تريد أن تنام؟ إذن نَمْ بعيدًا عني.

قال:

- ليس من حقك.

قلت:

- من حقي أن أخاف على حياتي يا صامويل، ولا أستطيع النوم وأنت تنظر لي هكذا.

نظر لي صامويل فنظرت له في حدةٍ، فأعطاني ظهره وقال:

- نامي أنا لا أنظر لك الآن.

ثم صمتَ وقد نام فعلًا.

كانت ليلتي صعبة، لم أنمْ بالطبع وإنْ تمنيت هذا بشدّة، كنت أنام دقائق وأنا أحتضن معولي، ثم أفيق مخضوضة لأجد حولي الظلام. أنام لأرى وجه يعقوب القبيح ينظر لي ويبتسم فأفيق، لقد جُننتُ فعلًا.

مرت ساعات تحدثت فيها إلى الحائط، وإلى نفسي، وإلى الله، وإلى الصخور، فجأة، أحسست بشيء غريب، مياه تتساقط على وجهي، قطرات، مسحت على وجهي وقد بدأ الشروق في الظهور، المياه تزداد تدريجيًّا.

قلتُ وأنا أهزُّ جسد صامويل:

– استيقظ يا صامويل، استيقظ سريعًا، إنها.. إنها..

قال وهو نائم:

– إنها ماذا يا مجنونة؟

قلت بلهفة:

– إنها.. إنها تمطر يا صامويل.

قال:

– وماذا في هذا يا... ماذا؟

قلت:

– تمطر يا غبي، تمطر.

اعتدل ووضع يده في وضع الدعاء ليتحسس بنفسه، إنها تمطر بالفعل.

قال:

– إنها تمطر بالفعل.

قلت:

– وهل ظننتَ أنني أكذب أو أمزح معك؟

وقفنا ونحن نستشعر قطرات المطر الرومانسية تملؤنا نشوةً وأملًا.

ازداد المطر بشكل كبير حتى سار سيلًا صغيرًا، كنتُ سعيدة جدًّا،

قال صامويل:

– الزجاجات الفارغة وأي شيء نستطيع ملأه، سريعًا.

قلت:

– يعقوب، سريعًا، أنت أعطيته كل شيء.

نظر لي ثم ركض سريعًا في اتجاه يعقوب، ثم أتى وهو يحمل بعض الزجاجات الفارغة وأعطاني منها وقال: لنأمل أن تستمر الأمطار حتى تمتلئ الزجاجات.

كنتُ أرصُّ الزجاجات وأفتحها وأنا أنظر إلى الشجرة وأتعجَّب.. نظر لي صامويل وقد فهم.

ثم قال:

– الربُّ لم ينس الشجرة بداخل كهف على عمق مئات الأمتار، أرسل لها لتشرب، ويتركنا هنا حُبساء.

قلت وقتها:

– الربُّ لم ينسنا يا صامويل.

قال:

– أيّ ربٍّ تقصدين؟ رب البادية ربك؟ أم رب الناصرة ربي؟ أم رب اليهود؟

قلت:

- كلهم ربٌّ واحد يا صامويل، إنما مفهوم الرب يختلف من حضارة إلى أخرى، تتعدّد سُبل الإيمان به، ولكنه في الآخر هو ربنا كلنا.

قال:

- نعم نعم، ولهذا نحن هنا، ليلى، لا يوجد ربٌّ في السماء، توجد كواكب وأجرام، لا أرباب وملائكة وأوليمب.

قالت:

- استعذ من شيطانك يا صامويل وادعُ ربك للنجاة.

قال:

- الرب لن يأتيَ ليُخرجنا، هو يصلب فقط، يدمّر مدنًا، يعذّب البشر، يوقعنا في بعضنا البعض.

قلت:

- الرب موجود وسنخرج يا صامويل، وعلينا أن نعمل على هذا.

قال:

- ما هذا التناقض الذي أنتِ فيه؟كيف سيخرجنا؟وكيف سنعمل على هذا؟ إذا كان حقيقيًّا فليُخرجنا إذن..

قلت:

- ليس الأمر بهذه السهولة يا صاح.

قال:

- إذا أردنا الخروج علينا أن ننسى أمر الربِّ، ولندعه يسقي زروعه وما هو مشغول فيه.

قلت:

- أستغفرُ الله، اصمتْ يا صامويل.

كانت الأمطار قد انتهت،والزجاجات قد مُلئت عن آخرها، فجمعت زجاجتين وصامويل جمع الباقي.

قلتُ وقد أوشكت على الشُّرب:

- يا الله كم أنا عطشى!

ولكن خطفها مني صامويل قبل أن أذوق المياه.

قلت:

- أعطني إياها، أريد أن أستسقي.

قال:

- لا، يعقوب هو من يسقينا، لا نريد أن نخالف العهد.

قلت بعصبية:

- أي عهد؟ هذه مياه السماء.

قال:

- ولكنها زجاجات يعقوب، تريدين أن تشربي فلنذهب له.

نظرت له نظرة غضب، واستطلت النظر.

قال لي:

- هي كلمة واحدة، تريدين الشرب فلنذهب له.

ثم أمسكني من ذراعي ودفعني أمامه.

أمسكت معولي، وقررت أن أذهب، وصلنا إلى المكان الذي يقبع فيه يعقوب. كان يغطُّ كالخنزير، مستمتع هو، أيقظه صامويل بصعوبة حتى أفاق، ثم أعطاه زجاجات المياه.

قال يعقوب:

- الكثير من المياه، إنها غنيمة فعلًا.

قلت:

- يعقوب، أريد نصيبي من الطعام والمياه.

قال بازدراء:

- لا، طالما أنا بالخارج فلا زاد لك ولا مياه.

ثم أخرج معلّبًا وفتحه ودعا صامويل للأكل فأكلا أمامي وشربا.

كان ريقي جافًا كصحراء الجزيرة العربية، كنت بالفعل أحتاج إلى نقطة مياه، وهما يشربان ويمرحان بلا أي إحساس.

قلت:

- ماذا تريد يا يعقوب؟ ماذا تريد في المقابل؟

بلع يعقوب ما كان يلوكه بنصف زجاجة مياه كاملة، ثم قال:

- أريد العودة.

قلت: وإن وافقت؟

نظر لي بخُبث، ثم أخرج زجاجة مياه كاملة وقال:

- ستكون لك.

نظرت إلى المياه، وأنا أكاد أبكي، فكرّت كثيرًا، ثم نطقت أخيرًا، قلت:

- موافقة ولكن بشرط.

قال:

- كما تريدين.

قلت:

- تعيش معي ليس كشريك،إنما كفرد عامل، مسؤول عن التغذية فقط ولك أجرك، ولا تحدّثني أبدًا.

قال:

- موافق.

قلت:

- ولا تنم بجانبي في الحديقة إلا عندما أفيق.

قال:

- موافق، أي طلبات أخرى؟

قلت:

- الآن لا، ولكن حذارِ، أقسم بالله سأقطع يدك.

نظر إليّ صامويل وابتسم، ثم ألقى لي زجاجة المياه على الأرض، زحفت نحوها بشوقٍ ولهفة كمن يري ابنه لأول مرة، احتضنتُها، يا إلهي العظيم! كانت مثلجة كما لو كانت خارجة من ثلاجة بيتي، شربتُها كلها وارتويت، يا الله، نعمك لا تُحصى.

انتهيت منها حتى آخر قطرة ثم جلستُ في انتشاء.

قال صامويل:

- ألم يحن الوقت للعودة يا ليلى؟

قلت:

- حسنًا هيا بنا، وأنت يا يعقوب، لا تنسَ الشروط، لا محادثات، لا حديث عن أحقيتك في الأرض، لا أي شيء.

أشار بالموافقة ثم هممنا بالوقوف، واتجهنا صوب الحديقة..كانت مبتلّة فعلًا، والهواء كان منتشرًا بداخل الحديقة ذلك اليوم. كانت ممتعة فعلًا، كنتُ أحتضن العشب في أمانٍ ورقة، أريد أن أنام بهدوء، فردت ظهري وقلت لصامويل:

- أريدك أن تعدني بشيء.

قال:

- لك هذا.

قلت:

- عدني أنك لن تؤذيني وأنا نائمة.

قال:

- لكِ هذا، سأحميكِ، لا تقلقي.

قلت: أثق بك لا أعلم لماذا، وأصدقك يا صامويل.

قال:

- نامي الآن يا ليلى، وخذي ما يكفيكِ من النوم، وعندما تستيقظين نتحدث.

قلت:

- هل تستطيع أن تأخذ يعقوب بعيدًا حتى أنام؟

قال:

- لك هذا، سآخذه للبحث عن مخرج.

قلت:

- بالمناسبة ألا توجد أيَّ أخبار عن مخرجٍ؟

قال:

- لا، ولكننا سنواصل البحث، فلتنامي الآن يا ليلى.

ثم إنه أخذ يعقوب ورحل.

الحديقة لي أنا وحدي، وسأنام أخيرًا مع أني أشكُّ أنهما ما زالا يُخططان لشيء ما، زيادة في الأمان، حفرت مكان الأسلحة وأخذتُ سكينًا خبَّأته معي، والباقي أعدت دفنها في مكان آخر، لربما احتجتها يومًا ما.

المسئولية صعبة جدًّا، كنت أستغرب عندما كنت صغيرة، لماذا أصحاب الأراضي والأملاك لا ينامون؟كنتُ أظن أن من لديه الأموال والأملاك والقوى لهو أسعد البشر فعلًا، ولهذا يتقاتلون عليها.

ولكن، هأنذا لديَّ حديقة صغيرة، والخطر يتمثّل في اثنين من المشرّدين داخل كهف، ولا أستطيع حتى أن أغفل لحظةً، الآن فقط قد فهمتُ.

حاولت جاهدة النوم، ولم أستطع قط، فقط لحظات كنت أغفل فيها ثم أعاود الاستيقاظ، كنتُ مرهقةً فعلًا، ثم إنني كنتُ جائعة وخائفة.

حاولتُ أن أسترق السمع لما يقولون، ولكنهم كانوا بعيدين جدًّا، بعيدًا عن مستوى استقبال أذني لترددات أصواتهم.

استسلمت، وقررتُ أن أحاول النوم ثانيةً.

محاولات تبيء بالفشل، ولكنني أصارع للنوم، أتذكّر كل لحظة كنتُ أعيش فيها ببال فارغ، أتذكّر الطلبة والتدريس، وسريري المريح، هاتفي الجوال، الإنترنت، التكييف، الأكل الجاهز، زملاء العمل، هذه الطفلة المشرّدة التي كنت أعطيها بعض الطعام من حين إلى آخر.

لتأخذوا عمري كله وتُرجعوني يومًا واحدًا لحياتي السابقة، لملابسي، لحمامي، لراحة بالي.. خذوا كل شيء واتركوني أخرج، لا تتركوني هكذا أبكي بلا دموع.

كنتُ أرى أشخاصًا يتحرّكون أمامي في الظلام، إنهم المارة في لندن، لماذا أتوا هنا؟.. ما الذي أتى بمبنى الجامعة أمام عيني؟ ماذا يفعل مديري هناك؟ هل يسمعني أحد ما؟ أخرجوني مِن هنا، أرى أمامي مكتب أزرق، وهذا السير اللعين نيكولا، قلت:

– ماذا تفعل هنا أيها اللّعين؟

لم يرد وإن ظلّ ينظر لي ويبتسم في خُبث.

اعتدلت وقلت:

– ماذا تفعل هنا أيها الخبيث؟ سأقتلك.

ورفعت معولي وهويت به على رأسه، وظللت أضرب وأضرب وهو يقطّع أمامي ويبتسم.

ضربت كل جزءًا منه وأنا أضحك بهستيريا.

- هاهاهاهاهاها ستقتل وتُحبس معنا في الكهف أيها الروسي اللعين.. هاهاهاهاهااهاهاهاه.

لماذا لا يموت هذا الوغد؟ هو السبب فيما نحن فيه الآن، مت ايها الكافر، مت ايها اللعين، اااااااااه

شعرت بيدين تمنعانني من ضربه، وأنا أصرخ:

- اتركوني على هذا الوغد.

سمعتُ صوتًا يُشبه صامويل يقول:

- خُذ المعول منها سريعًا يا يعقوب.

كنتُ أرفس في كل اتجاه وأقول:

- سأقتله، إليكم عني يا مجانين.

قال يعقوب:

- اهدئي يا ليلى، إنها شجرة، شجرة.

قال صامويل:

- إذا لم تهدئي سنُقيِّدك يا ليلى.

نظرت بجانبي فرأيتُ صامويل يمسك بي، هل يبتسم؟

نظرتُ له وسريعًا رفسته بين قدميه، فسقط يتلوّى على الأرض، ثم نظرت إلى يعقوب وقلت:

- إليك عني أيها اليهودي الخبيث، أنتم السبب، أنتم السبب.

ولكنه قد شلّ حركتي بالفعل، قال:

- هدّئي من رَوْعك يا ليلى، لقد وجدنا السبيل للخروج أخيرًا.

قلت وأنا أصرخ:

- أنت تكذب، تكذب، تريد أن تغتصبني فقط.

قال:

- سأقيدك في ملابسك إذن، لا تتحركي.

كنتُ أحاول التملّص منه، وكان هو يتحسسني بالفعل بيديه الاثنتين نزع عني ما تبقي من أرجل بنطالي،وجلس عليَّ ليشلّ حركتي ويربط يدي في ظهري.

قال:

- ولأنك أيتها العربية الخبيثة لا تهدئين، سأقيدك إلى الأبد.

كان يبتسم، وقد ربط يديَّ إلى بعضهما البعض وراء ظهري بالفعل، ظللتُ أحاول التملّص وأنا أصرخ:

- إليك عني أيها السافل الحقير.

وكان هو يكمل تقييدي، وكان يتصبَّب عرقًا بالفعل، نظرتُ إلى صامويل فكان ما زال يتلوى ألمًا جرّاء الضربة القاضية التي وجهتها له.

رفستُ حجرًا بكامل قواي تجاه رأسه وأنا أقول:

– وغد، وغد.

فأصابه وجرحَ رأسه أيضًا.

يعقوب قد سار حيواناً فجأة، اقترب مني ببطء، وأنا أحاول التملُّص.

قال وهو يعالج شيئًا في بنطاله:

– الحلم، إنه يتحقق.

فهمت ما يقول وإلى ماذا يرمي بكلامه عندما واجهتُ أسوأ موقف في حياتي.. كانت يداه باردتين وهو يتحسس صدري، كنتُ أعضّه ولا يكترث، يقول:

– أحبُّك يا ليلى.

يحاول أن يلمسني بشفتيه القذرتين وأنا أبكي بحرقة، لا أقوى على المقاومة، لا سلاح حولي، ولا أي شيء، ظللتُ أرفس بقدمي فلا أستطيع إبعاده عني، سار ملاصقًا لي، يمرر يده ليلامس كل جزء فيَّ، تسرح يده ليتحسس كل شيء، كنت أتلوَّى كالكفار في السعير، لا

أطيق ملامسته، اهتزازاته المستمرة، طعناته تقتلني حرفيًّا، أصابتني هستيريا الصراخ حتى غبتُ عن الوعي. لا أعلم كم من الوقت مَرَّ عليَّ وأنا غائبة عن الوعي، لم أكن أريد الاستيقاظ أبدًا، لقد قُتلت حرفيًّا.

أفقتُ وصوتي كان قد جُرح، وأشعر بأنني قد انتُهكت حرفيًّا، نظرتُ حولي في اشمئزاز ودهشة، كان يعقوب ممددًا بجانبي وهو يتنفّس بسرعة، ويمسح عرقه عن جبهته القذرة. وصامويل قد أعطى ظهره لنا، وينام كالخنزير. أما أنا، لا أعرف كيف أصِف إحساسي، مقيدة، بلا ملابس، ولا مأوى، بكيتُ، ثم صرختُ على صامويل:

- أيها الديوث الحقير، أفِق لترى ما آل إليه جندي أيها الوغد.

كان يعقوب يتلذّذ بكل هذا، وقال في استخفاف:

- حاولي أن تنسي ما حدث، فأنتِ حقٌّ من حقوقي، عندما تخرجين ستنسين كل هذا.

قلت:

- لن تهرب بفعلتك هذه أيها اليهودي القذر، والله ستندم.

نظر لي نظرة أخيرة ثم أعطاني ظهره في لا مبالاة.

***

الرقيب صامويل فرانكلين

نعم، كنتُ أرى كل شيء، ولكن لم يكن هذا ضمن مخططي قط، كنتُ أُخطط لإجبارها على إخراجنا، ولكن ليس بهذه السرعة، ولكنني وعدته بها، وعندما حانت الفرصة لم أتدخل، فقط انسحبت وليفعل ما يريد، هو ليس صديقي هذا الوغد القذر، ولكنه عامل أساسي في إقناعها بإخراجنا، هي مثل كأس النبيذ المُرّ، طعمه عكر، ولكنه لذيذ بعد هذا، وعندما يدمنه سيستمع إلى توجهاتي كلها، وسأخرج إن عاجلًا أم آجلًا.

ليلى قد جُنّت بالفعل، ليس لها أي دور الآن في حياتنا هنا في الحديقة، عالة علينا، لا تحفر، لا تعمل، فقط تستهلك الطعام والمياه التي أوشكت على النفاد بالفعل. نريد أن نظل أحياء حتى نستطيع

الخروج من هنا، وقتها ما تريد فعله فلتفعله حتى وإن سجنته أو أخصيته حتى.

مَرَّ على الحادثة أسبوع كامل، كان أسبوعًا كئيبًا بالفعل، نستيقظ فنذهب لإكمال الحفر في الممر الزيني، نريده أن يكون مقعرًا بما يكفي ليهدم كله إلى الخارج. أما هي كانت مقيدة، وكان يعقوب قد استباحها بالفعل.. يعطيها الفُتات من المعلّبات وقطرات من المياه، يعاملها كالحيوان، ينتهز فرصة انشغالي ليُباشرها، أو ليتلامسها، وكانت قواها قد خارت بالفعل، عقلها قد عفى عليه الزمن، وسارت مسيّرة نحو قدرها.

أما يعقوب فكان يشعر أنه قد ملك كل شيء، الحديقة سارت له كليًّا، ليلى سارت عبدة لديه، وسار هو سيدها، يتحكّم فيها بالطعام والشراب،كثيرًا من الوقت كان هو يمنع عنها الطعام والشراب عقابًا لها على المقاومة، حتى سارت القطعة اللينة بين يديه. سارت هي تعرف الطريقة لإجباره على تغذيتها، وارتوائها، تكشف له عن جسدِها بصعوبة ثم تطلب منه المياه، فيسقيها ثم يُباشرها.

كان هو يتعمّد إهانتها، يقول لها:

– أنا سيدك، أنتَ لِي.

ثم سار يختلي بها كثيرًا جدًّا، أما أنا فكنتُ أحفر، وأهيأ المخرج ليصير آمنًا وقت الانفجار.

أحفر كثيرًا، ثم أرجع لآكل وأشرب ثم أنام، أما ليلى كانت دائمًا ما تنظر لي باشمئزاز ثم تبصق عليَّ وتقول:

- ديوث، ديوث بلا عهد ولا كلمة، اذهب إلى الجحيم أيها الحقير.

يعقوب دائمًا ما كان يشرح لها فكرة المخرج، ويقول باستمرار:

أنتِ من ستخرجيننا من هنا، أنتِ الوحيدة التي تستطيع إخراجنا.

يقول لها قبل اغتصابها:

- أنتِ من تستطيعين إخراجنا.

كانت هي لا تسأل أبدًا، كانت كالطين اللين سهل تشكيله، لقد استسلمتْ لقدرِها وجُنّ عقلها تمامًا، وكنت أنا أنتظر اللحظة الحاسمة للتنفيذ.

حتى جاء اليوم الموعود، في هذا اليوم لم يمسسها يعقوب، كانت هي جائعة وتموء كالقطط، تستجدي عطفه لإعطائها نصيبها في الأكل كالعادة ثم تكشف عن جسدها الهزيل،وكنت أنا أجلس لأريح ظهري من العمل المتواصل، فجأة، وضع يعقوب حقيبته أمامنا، وأخرج منها زجاجتين من المياه وثلاثة معلّبات، ثم قال:

- آسف يا ليلى، هذا آخرِ ما معي، ولن تذوقي الطعام أو الشراب من الآن.

قالت:

- لماذا؟ أرجوك يا سيدي، أنا أتلوّى جوعًا.

قال:

- ليس معي إلا ما يكفيني أنا وصامويل، نحن نعمل إنما أنتِ لا.

قالت وهي منهكة:

- وهل ستتركني أموت هكذا؟

قال:

- سامحيني يا ليلى، إما العمل من أجل الطعام وإما لا أكترث.

قالت:

- كل ما فعلّته معي على مدار الأيام البائدة لا يكفيك؟ أليس هذا عمل؟

قال:

- لا، كانت لذة استمتاع، وقد استمتعتِ أنتِ أيضًا.

قلت أنا:

- لديَّ عمل لك يا ليلى وهو العمل الأهم، إذا ما تم على أكمل وجه سأعطيكِ نصيبي من الطعام والشراب.

قالت:

- وما هذا العمل الذي لا يقوى عليه فحلٌ مثلك؟ قل أيها الديوث.

قلت:

- لا تُهينيني أيتها البربرية، وإلا أقسمت بالمسيح أن أتركك هنا للأبد.

صمتت فقلت:

- هو عمل سهل وسيخرجنا من هنا إلى الأبد.

قالت:

- وما هو؟

قلت:

- ستشعلين القداحة فقط.

قالت بازدراء:

- وهل أصابعك قد أصابها مكروه أيها الفحل الأمريكي؟

قاطعنا يعقوب، وقال:

- ستشعلين القداحة في مكان ما هنا وهذا سيفتح لنا مخرج إلى الهواء الطلق، عندها سنكون بأمان بالخارج، ووقتها فقط ستعودين إلى حياتك السابقة يا دكتورة.

قالت:

– أيُّ حياة سابقة يا حيوانات،لقد قتلتماني بالفعل، إذا ما خرجت من هنا سأنتحر إن عاجلًا أم آجلًا.

قال يعقوب:

– ليلى لا تهوّلي الأمر، لقد مارسنا الجنس معًا، ما الخطأ في الحب؟

قالت:

– أي حبّ؟ لقد أهنتني واغتصبتني، أنت لا تعرف أي شيء، ديني يحرّم هذا بشكل مطلق، هذا كالقتل بالنسبة لي، الشرف الذي لا تعرفون عنه شيئًا.

قال صامويل:

– أي شرف؟ رسولك قد تزوَّج من المطلقة، واليهودية والقاصر، كانت له جارية أيضًا، عن أي شرف تتحدثين؟

قالت:

– اخرس يا ابن الزنا، على الأقل إلهي لم يكن ابن الخطيئة.

قلت:

– لا تتفوهي بكلام لا تفهمينه، هذا كلام المتخلّفين أمثالك.

قال يعقوب:

– سنظل على خلاف دائم إلى الأبد.

قالت ليلى:

- خلاف أو لا أيها المغتصب، لا تصالُح مع من استباح جسدي، ثم عن ماذا تتكلم؟ أنتم ملعونون إلى الأبد، منذ استباحة فرعون لكم حتى قدوم هتلر، لا تتحدث معي أبدًا.

قلت:

- عجيب أمرك يا صبية، تتحدثين بغرور لا معنى له وأنتِ تسبحين في حيوانات يعقوب المنوية، على الأقل تحدثي وأنتِ في مركز قوي.

صمتت ليلى، ثم قالت:

- حسنًا ماذا تريدان مني الآن؟

قلت:

- سنشرح كل شيء، وسنفك قيدك أيضًا، ولكن عديني أن تتفهمي الموقف أولًا، ثم تتحدثي بتحضر.

قالت:

- أعِدُك.

نظرت لها، كانت عيناها منكسرتين فعلًا، هي تقول الحقيقة.

أشرتُ ليعقوب فذهب إليها وفكَّ قيدَها، كان الدم قد احتبسَ في يدِها وكانت تحرّكهم بصعوبة فعلًا، كانت تتلمس يدها وهي تتنفس

بصعوبة وتنظر إلى يدها وذراعها، ثم أخذت تُداري جسدها بما تبقّى من ملابسها، ونظرت لنا بحدقا المعروفة.

قلت أنا شارحًا:

– استمعي لي يا ليلى،لقد وجدتُ منفذًا إلى الخارج، وعليكِ أنت أن تفتحيه.

قالت:

– كيف؟

قلت:

– بهذه.

"وأشرتُ إلى قداحة يعقوب".

قالت:

– وكيف أفتحها بهذه ولماذا أنا بالذات؟

قال يعقوب:

– لأنني أنا وصامويل سنكون هنا نتأكد بأن الكهف لم يتصدّع جراء الانفجار.

قلت:

– أي انفجار؟ عن ماذا تتحدثان أيها المخنثان؟

قلت:

– التزمي الأدب في الحوار، ببساطة لقد نفد الطعام، ولن نستطيع البقاء هنا لأكثر من يومين ثم سنموت كلنا، هل تريدين الدفن هنا حية؟

قالت:

– لا، ولكني أريد أن أفهم.

قال يعقوب:

– هناك آخر هذا الممر، ممر أصغر على اليمين، قد حفرته مقعّرًا أنا وصامويل على مدار أيام.

قالت:

– وبعدها؟

قلت:

– وهذا الممر المقعّر يتكون بأكمله من البترول الذي لم يُكتشف بعد.

قالت:

– بترول؟

قلت:

- نعم، ونعتمد في خطتنا على إشعال الممر بالقداحة فينفجر إلى الخارج لأنه مُقعر، عندها ستتشكّل فتحة سنستطيع الخروج منها والنجاة كلنا، ونرجع أخيرًا لحياتنا السابقة.

قالت:

- بترول؟ تريدني أن أشعل أرضًا مُتشربةً كاملة بالبترول؟ سأنفجر وأموت محترقة أيها المجنونان، هل فقدتما عقلكما؟

قلت:

- لن تموتي، الانفجار سيكون إلى الخارج، وعلينا أنا ويعقوب أن نظل هنا للتأكُّد من عدم هدم الكهف فوق رؤوسنا كلنا.

قال يعقوب:

- وأنا سأكون خلفك لا تقلقي.

صمتت ليلى ثم تمالكت دموعها وقالت:

- حسنًا، أي شيء عدا المكوث هنا معكما، لقد سئمتُ منكما بالفعل، الموت محترقة أكثر راحة من الحياة مع حيوانين عديمي الشرف مثلكما.. أعطني القداحة يا يعقوب.

اقتربت من يعقوب وأخذت القداحة، ثم فجأة خطفت معولًا كان على الأرض بجانب يعقوب، ورفعته عاليًا لتصيب يعقوب في كتفه وبحركة دائرية أصابتني في رأسي..ثم قالت بسخرية:

- إذن هذا ما كنتما تخططان له أيها الشيطانان، تريدان التضحية بي، لن تنالاها أبدًا ما دمتُ حيةً.

ثم إنها رفعت المعول ثانيةً لتضرب قدم يعقوب فيصرخ ألمًا:

- أيها المجنونة.

ثم إنها عادت إليَّ، ووقفت فوقي، ثم بصقت وقالت:

- وأنا الذي وثقت بك أيها الخائن، دفعتها سريعًا لتسقط، ثم كورت قبضتي لأوجه إلى رأسها ضربة موجعة فعلًا، ولكنها تمالكت أعصابها ورفعت المعول وضربت قدمي لأسقط، ثم وقفت تترنَّح، ورفعت المعول، ووجهته إلى رأسي. ثم لم أشعر بشيء.

***

الصحفي يعقوب جريفمان

لقد هربت الفاجرة، هربت، ومعها كل شيء، القداحة، والزاد، وما بقيَ من المياه، وكل شيء، قوية أنتِ يا ليلى، كنتُ أترنَّح فعليًّا، ولا أقوى على الوقوف على قدمي، لقد أصابتني في مقتل، قدمي قد جُرحت بشكل فظيع، وصامويل قد فقد الوعي نهائيًّا.

كان نظري مُشوَّشًا والظلام قد حلّ علينا بالحديقة، وأنا أجاهد لأقف علي قدمي ثانية، تحسّست قدمي فإذا بالدماء قد تجلطت، يبدو أننا فاقدا الوعي منذ مدة، زحفت فعليًّا في اتجاه صامويل المُصاب لأرى كيف حاله، هززته بلا استجابة، كان يئنُّ فقط، فاقد الوعي هو،ولكنه سيفيق إن عاجلًا أم آجلا.

خطر على بالي شيء ما، الأسلحة، علينا أن نبحث نخرجها لندافع عن أنفسنا إذا عادت هذه الشرسة لتنتقم، زحفت ثانية، وحفرت، حفرت في المكان الذي خبَّأنا فية الأسلحة، لا شيء، لقد أخرجتها العاهرة في مكان آخر، نحن يائسان فعلًا، بلا أي شيء ولا حتى سلاح للدفاع عن أنفسنا. تُرى ما الذي سيحدث لنا؟ لا أعرف، كل ما أعرفه أن مصيرنا أصبح في يد العربية هذه، ونحن لن نقف مكتوفي الأيدي هكذا.

بحثتُ في كل شبر، لم أجد أيَّ شيء، ولكن، عند الشجرة وجدت شيئًا ما.. أوراق ليلى، الأوراق التي كانت تكتب فيها كل شيء، مذكراتها منذ بدأنا الرحلة، يبدو أنها كانت تسجّل كل شيء تحسبًا لأي أمر طارئ يحدث لنا، ويبدو أنها قد سجّلت حتى لحظات اغتصابها، وحتى هروبها قد كتبته، ولكن متى كتبتْ كل هذا؟

يبدو أننا فقدنا الوعي كثيرًا إذن، وقد جلست هنا وكتبت ما تبقّى، ولكن لماذا تركت الأوراق هنا؟ ظللتُ أقرأ، وأدرس في أوراقها في انتظار صامويل، يا إلهي! لقد عذّبناها فعلًا، ما تقصّه هنا هو مأساة فعلًا، كيف لي أن أعرف كيف كانت تشعر وهي معنا؟ لقد أعماني الشيطان لأفعل ما أفعل بالرغم من أنها كانت منجذبة لي، بالإحساس الندم.

آه لو يعود الزمن لأعتذر، ولكن أوان الاعتذار قد انتهى، والآن وقت الحرب، حرب البقاء التي سنخوضها ضد بعضنا البعض.

ظللت أقرأ لساعات على أصوات أنين صاmويل، درست كل كلمة قالتها هي، لم تكن منصفة قط، تقصّ حكاياها من وجهة نظرها هي،

بعدما فشلت خطة صامويل الخبيثة، وبعد أن نفدت المؤن، وهربت ليلى، أظنّ أننا سنأكل بعضنا البعض، الجوع، إنه النداء الطبيعي لارتكاب الجرائم كلها، كم من لصٍّ بدأ رحلته في السرقة بسبب الجوع! كم من قاتل محترف كان سبب جرائمه هو البحث عن الطعام! إنه السبب في كل شيء، وهو ما سنعمل علية من الآن. وإذا نجونا، وهذا ما أشكُّ فيه، على الأقل سينجو أحدنا في النهاية، على العالم أن يعرف ما مررنا به، على من يتكلم أن يصف حجم معاناتنا بإنصاف، في آخر مذكّراها كتبت جملة لا أفهمها، قالت:

"وقد قررت الهرب، ولكني لن أهرب طويلًا،سأعود شئت أم أبيت، لديَّ ثأر هنا وسآخذه، حتى وإن اضطررت أن أخون العهد الذي خاناه بالفعل، وسأحارب، إن لم يكن لأجل الحديقة ولا النجاة فلأجل الله، فما عند الله خير وباق".

يبدو أنها قد تركت أوراقها عن قصد، إنها تعلم أننا سنقرؤها، وهي تريد أن يدبَّ في قلوبنا الرعب، لا لن أقطع مذكراها، سأحتفظ بها هنا،ولكن سأحاربها بالمثل.

أخذتُ بعض الأوراق وقلمًا، واستندتُ إلى الشجرة، نظرتُ إلى السماء، أي رب، لِمَ تركتنا في هذا الصراع؟ لماذا لم تنصر فردًا من شعبك المختار؟ أنا هنا حبيس بين الحياة والموت أصارع من أجل اللاشيء، لا أصارع لأجلك، ولا صامويل يصارع لأجلك، ولا حتى ليلى وإن تظاهرت بالمثل.

لا يصارع لأجلك أحدٌ، كلنا نصارع لأجل البقاء، لأجل حق الحياة، لأجل حياة كريمة بين أسرنا، لأجل حدود وطن، لأجل المعيشة والنِّعم والشهوات، لماذا لا تُرسل جبرائيل الآن ليحسم الموضوع؟ ألستَ من أرسلته لتنصر لوط على سدوم وعمورة؟ ألم ترسله لينصر إسرائيل النبي؟ ألم يكن بصحبة موسي عندما ظهر له في العليقة ألم ترسله لأنبيائك في السّبي؟ ألا ترسل ملائكتك إلا للأنبياء فقط؟ أنا فرد من شعبك، لقد خدمت دينك ووعدك كثيرًا جدًّا، ألا أستحقّ النجاة؟ أنت تعرف تاريخي في إسرائيل، تعرف كيف كنت دائمًا الحامي لدينك من أيدي الغوغاء العرب، اعرف أني لا أترك عيدًا إلا واحتفلت به، تعرف الكثير، ربما في تركك لي هنا حكمة لا يعلمها أحد إلا أنت، الغوث يا رب.

نظرتُ إلى الورق الفارغ، عندما أفاق صامويل من غيبوبته أخيرًا، كان يتحسس رأسه المصاب.

قال لي:

- ماذا حدث؟

قصصتُ له كل شيء، حتى الأوراق التي تركتها.

قال:

- البربرية الخبيثة.

قلت:

- وأنا قد قررتُ أن أُدوِّن كل شيء أيضًا، وعليك أن تُدوِّن أنت أيضًا.

قال:

- لستُ بصدد تفاهاتك هذه يا أيها الجرذ.

قلت:

- ولكن عليك أن تسجّل كل شيء، ربما تقتلنا هذه العاهرة، وربما نهرب،وتجد نفسك في مواجهة الإعدام،ربما خرجتْ واستنجدت بالرعاع المسلمين.

صمتَ قليلًا ثم قال:

- حسنًا، أعطني بعض الأوراق.

استند بظهره إلى الحائط الذي بنيناه من قبل، ثم نظر إلى الأوراق، صمتَ برهةً ثم صرخ:

- لا أستطيع، لا أرى جيدًا، يدي ترتعش.

قلت:

- مشكلة هذه، وماذا ستفعل؟

قال:

- لدينا ما هو أهم من التسجيل وهذه المُهاترات أيها الجرذ، علينا أن نبحث عنها ونبدأ حربنا ضدها، علينا أن نبحث عن وسيلة لإجبارها على إشعال الجدار.

قلت:

- وكيف هذا؟

قال:

- أنا لا أعلم، لا أعلم أبدًا.

نظرتُ مليًّا حولي، وأنا أحاول أن أفكّر في طريقة،ولكني لا أعرف أبدًا.

قلت له:

- سنبحث عن طريقة، ولكن عليك أولًا أن تُسجّل قصتك معها.

قال:

- وكيف لي وأنا لا أعرف الكتابة حاليًا؟

قلت:

– أين كاميرتك؟

نظر لي كأنه يتذكر، ثم أشار إلى حقيبته تحت الشجرة الثانية، فزحفتُ لها ثم وجدها فأخرجتُها.

قلت له، وأنا أناولها له:

– وهل ستعمل؟

قال:

– هي كاميرا تعمل بالبطاريات، ولحسن حظك لديَّ من البطاريات الكثير.

قلت:

– حسنًا، ثبت الكاميرا وسجّل كل شيء.

وقف صامويل على قدميه، وثبّت الكاميرا على أحد فروع الشجرة في منتصف الحديقة ثم بدأ يتكلم:

أخ..لقد ضربتني هذه التافهة العربية، لم يتبقَّ إلا الرعاع والجراثيم حتى يتطاولوا علينا، أخ يا ربي، فلتذهب إلى الجحيم، يا لها من عاهرة لقد تسببت لي بجرح وجهي، سأقتلها بحق السماء "يصرخ بها "، لكم أريد سحقها يا إلهي "يصرخ ثانية "هذه العاهرة"، ثم ألقى ببعض الحصى على الحائط.

صوت من الخلف:

- هَدِّيء من روعك يا صامويل، سنسحقها إن عاجلًا أم آجلًا فلا مكان هنا للهرب.

صامويل:

- اخرس واتركني أيها الجرْذ، ألا ترى أنني مشغول؟

تركته وذهبت إلى الممر، ومعي الأوراق وكشّاف صغير، وهأنذا أدوّن كل شيء، وقد كان، دوّنت كل شيء، والحرب هي مصيرنا، سنحارب، وسنفوز، وعندها فقط سنخرج وليسقط كلّ شيء.

***

الفصل قبل الأخير

الحرب

يعقوب:

- هل انتهيتَ يا صامويل؟

صامويل:

- انتظر أيها الجرذ.

ينظر صامويل إلى الكاميرا..

- ثم هربت الفاجرة، تاركة وراءها حِفنة من الأوراق، وإلى الآن نريد أن نخرج، ولا نعرف كيف، يبدو أن مصيرنا سيكون المواجهة، والأضعف هو من سيفتح البوابة للخروج، انتهى.

يعقوب يقترب من صامويل فيقول:

– وماذا سنفعل يا صامويل الآن؟ هل فكّرت في طريقة للفرار؟

صامويل:

– لديَّ فكرة، ولكن علينا أن نقبلها جميعًا، وعلينا أن نجد ليلى.

يعقوب:

– وما الفكرة؟

صامويل:

– سترى أيها الجرذ، الآن فلنتحامل على بعضنا البعض ولنبحث عن ليلى، احمل الكاميرا يا يعقوب، ولكن غيِّر بطاريتها أولًا.

قطع.

صامويل:

– وتعرف الآن ما علينا فعله، هل شغّلت الكاميرا؟

يعقوب:

– نعم وأنا على وضع الاستعداد.

صامويل:

– حسنًا هيا بنا.

يسيران في الممر تاركين الحديقة.

صامويل يصيح:

- ليلى، ليلى، أعرف أنك تسمعينني، علينا أن نتحدث يا ليلى.

صمت.

صامويل:

- ليلى، لا بد أن نخرج من هنا، لا أمل لديكِ هنا إلا الموت جوعى، وأنا هنا أطالب بسلام مؤقت، لن نجبرك على إشعال الممر، صدقيني لا أمل من الفرار.

صمت.

صامويل:

- ليلى، أنتِ لديكِ الأسلحة، ولا بد أن طعامك قد نفدَ، وإذا ظللنا هكذا لن نخرج أبدًا، حسنا فلنظل هنا ولكن أتريدين الموت أيضًا؟

صامويل هامسًا إلى يعقوب:

- ستأتي.

يعقوب:

- أظن أننا سننتظر كثيرًا.

صامويل صارخًا:

- ليلى أرجوكِ، أنا مُصاب ولن أؤذيكِ، صدقيني هذه المرة.

تظهر ليلى في الكادر من الخلف على ضوء الكشاف، والكاميرا الأخضر.

ليلى:

– وماذا تريدان الآن؟ أن تأكلا لحمي؟

صامويل:

– لا يا ليلى، لا نقوى على أي شيء، ولكن علينا أن نخرج من هنا.

ليلى ترفع المعول مُنذرةً:

– ومَن قال إني أريدكما أن تخرجا؟

صامويل:

– لا تريدين لنا النجاة، ولكن على الأقل تريدين النجاة بحياتك يا ليلى.

صمتت ليلى ثم قالت:

– وما الذي يضمن لي أنكما لن تخونا العهد ثانيةً؟

صامويل:

– لن نفعل،لا شيء يضمن لكِ أي شيء،ولكن عليكِ أن تفكّري بمنطقٍ. أنتِ لن تشعلي الحائط وكذلك نحن، ولكن هل سنظلُّ هنا؟

قالت ليلى:

- فلنشعله نحن الثلاثة إذن.

صامويل:

- ليلى، إذا ما انفجر الممر، سيُطيح بما أمامه، سنحترق كلنا، لن ينجو أحد، وعلى أحدنا فقط إشعاله.

ليلى:

- وأنا لن أشعله أبدًا.

صامويل: فلنلجأ إذن لأحد الحلين.

ليلى:

- وما حُلولُك أيها الديوث؟

صامويل:

- الحل الأول.. الحرب، أن نتقاتل على مَن سيُضحي بنفسه ويُشعل الممر، الخاسر هو من يذهب لإشعاله.

ليلى:

- والحل الآخر؟

صامويل:

- القُرعة، نكتب أسماءنا على الورق ومَن تختاره الأقدار يذهب ليشعلها.

قالت ليلى:

– لست موافقة على أيٍّ منهما، فلتذهبا إلى الجحيم، أنا مصدر القوة هنا الآن، لديَّ السلاح ولدي القدّاحة المقدسة، وأنتما ليس لديكما شيء، أنا من أختار أحدكما.

قال صامويل:

– العدل يقول أحد منا، أحدنا ينقذ الآخرين، وإلا..

قاطعته ليلى:

– أيُّ عدل؟ أيُّ عدلٍ سمح لكما من البداية التخطيط لمصيري؟ أي عدلٍ سمح لكما بمحاولة إحراق نفسي لأجلكما؟ أي عدلٍ جعل هذا اليهودي القذر يستبيح عرضي بحجة أنني حقه الشرعي هنا؟ أنتما قذران ولن أُوافق أبدًا.

قال يعقوب:

– ما حدث قد حدثَ يا ليلى، وإذا ما خرجنا من هنا سأعترف للحكومة بكل شيء، أنا نادم والربُّ يشهد.

ليلى:

– أيُّ ربٍّ؟ ربُّ المسلمين أم رب اليهود أيها الخائن؟

صامويل:

– ليلى، سنتجادل كثيرًا في أحقية كل منا في كل شيء، لا رب هنا يسمعنا، نحن فقط، وعلينا أن نخرج من هنا، أو نموت نحن الثلاثة معًا.

صمتت ليلى ثم قالت:

– موافقة على القُرعة.

قال صامويل:

– حسنًا، القرعة إذن، سلام مؤقت بيننا، ولكن من سيخرج اسمه في القرعة يذهب ليخرجنا، موافقة؟

ليلى:

– موافقة، ولكما نفس الشروط.

صامويل:

– حسنًا، يعقوب، أخرِجْ ثلاث أوراقٍ واكتب أسماءنا.

يُخرِجُ يعقوب الأوراق ويترك الكاميرا، يكتب شيئًا ما ثم يثني الورق ويرجُّه بين يديه.

قالت ليلى:

– سأسحبُ أنا.

أومأ صامويل برأسه موافقًا، فاتجهت ليلى لتسحب ورقة فيأخذها صامويل ليقرأها.. يفردها ثم يقول بفرحة:

- الاسم المكتوب هو، ليلى.

علاماتُ الدهشة على وجهها،يصيح صامويل:

- لقد انتصر الصليب، أشكرك يا رب.

تنظر ليلى متسائلة، فتقترب من الورقتين الأخريين وتقرأ إحداهما "ليلى، والأخرى ليلى أيضًا، أيها الغشاشان الحقيران".

فترفع ليلى المعول لتهشّم وجه صامويل في حركةٍ واحدة، فيسقط على الأرض وهو يصرخ، وبظهر المعول تضربه الثانية، ثم تلتفت إلى يعقوب منذرةً فيرفع يعقوب يده ويتراجع إلى الوراء.

تصرخ ليلى بجنون:

- إلى الوراء أيها القذر، ثم تُخرِجُ سكينًا صغيرًا وتجلس على بطن صامويل،صامويل يُقاوِمُ،ويعقوب يُراقِبُ المشهد بخوف، ترفع السكين لتلوح به في وجه صامويل فيتقطع وتنهمر الدماء.

يصرخ صامويل:

- أيتها العاهرة، فيدفعها بكل ما أوتيَ من قوة لتسقط على الأرض.. ثم كالثور الهائج يقفز عليها وهو يصرخ، وهي تتمسّك بالسكين في يدها تُلوِّح به وهو يتفادى الضرب ليصفعها عدة صفعات، تسقط السكين من يدها، فيُكوِّرُ صامويل قبضته ويُسدِّدُ إليها ضربةً مُوجِعةً فعلًا، فتنهار وتبحث بيدها عن أي شيء، فترفع

صخرة صغيرة وبضعف تضربها على جبهته، يبعد هو يدها، ويُسدِّدُ إليها لكمةً أخرى، قواها تخور، وهو يلهث كالثور.

يصرخ:

- موتي يا أيتها العربية، وقبل أن يُسدِّد إليها لكمةً أخرى، تمسك السكين بجانبها وتضعها في صدره، بكل قوة، ينظر لها نظرة مهيبة، تنفّس هي عن أنفاسها، تسحب السكين وتُسدِّد ضربةً أخرى، تنهمر الدماء من صدره، تدفعه عنها، ثم تستند على جسده، وتسحب السكين من صدره، وتبصق عليه.

أصبح صامويل جثة هامدة، ولكنها ظلّت تضرب فيه بعصبية، وهي تصرخ:

- أراك في الجحيم أيها الخنزير، أيها الوغد، تضرب وتسبّه، أيها الخائن، أيها الخنزير.

ثم إنها وقعت على ركبتيها، ونظرت في الأرض ثم إلى الدماء على يديها، ولم تبكِ، فقط رفعت رأسها، ونظرت إلى يعقوب الذي كان ما زال يرفع يده في استسلام، رفعت معولها ثم أشارت إلى الكاميرا وقالت ليعقوب:

- احملها.

كان يعقوب قد شُلّت حركتُه تمامًا، لا يعرف كيف يتصرّف الآن.

أشارت إلى الكاميرا ثانيةً ثم قالت:

– احملها أيها الجرذ.

تماسَك يعقوب، وحمل الكاميرا، أشارت إلى الممر ليسير أمامها، سارا في اتجاه الحديقة، ثم سلطت الكشاف بكل إرهاقٍ وتعب، وقالت:

– أعطني الكاميرا.

أعطاها إياها بأطراف مرتعشة، فقالت في اتجاه الكاميرا:

– من يجد هذه الكاميرا سيفهم كل شيء، القوة، القوة هي كل شيء، لا الدين، لا العهود، لا أي شيء.. كل القيم التي تربينا عليها لا تنفع في المواجهات والبقاء... البقاء دائمًا للأقوى.

عند الحديقة، أعطت يعقوب الكاميرا، وقالت:

– لا تتحرك.

ثم إنها دفنت الأوراق التي معهم، ورفعت معولها لتقطع الشجرتين الواهنتين، كانت تقول:

– لا حياة لمن بعدي، ولا معنى للحياة في وجود الكراهية.

ثم أشعلت النيران في الأخشاب، قالت:

- السلاح هو القوة، والقوة هي ما تُحدِّد المصير، كل ما بنيناهُ سيُهدم الآن، ثم إنها نظرت إلى الحائط الذي بنوه من قبل، ثم رفعت معولها اليدوي، وهدمته، قالت:

- لا أرض بعد اليوم، لا نقطة ارتكاز، الماضي ما هو إلا ذكريات أليمة، والعهود ما هي إلا كلام على ورق، من لديه القوة لديه كل شيء.

انتهت، وهي مُنهكَة، ثم وجَّهت معولها في اتجاه يعقوب، وقالت له بصراخ مُدوٍّ:

- اترك الكاميرا على الأرض في اتجاهك واجثُ على ركبتيك.

ترك الكاميرا كالسِّكير، ثم نظر لها وقال:

- وماذا ستستفيدين؟

اقتربت منه ثم وجهت ركلةً في جُرح قدميه فجثا على ركبتيه ألمًا، ثم وقفت عند ظهره، وهي تنظر للكاميرا، وتقول:

- لا حياة لي مع مغتصبي.

قال يعقوب:

- ربي، احمني.

قالت:

- فلتذهب إلى ربك ليحميك إذن.

ثم رفعت معولها عاليًا، وقالت:

- هذا لكل ما فعلته أيها الجرذ.

ثم هوت به على رقبته، فتهاوى رأسه أرضًا، وسقط جسده الواهن على الأرض، أخذت نفسًا عميقًا، وألقت معولها على الأرض، ثم جلست ونظرت إلى ما حولها وهي تبكي.

مرّت دقيقتان، فقامت من جلستها، وحملت الكاميرا، ومعها كشاف صغير، وبخطوات ثابتة بطيئة وصلت إلى الحفر، وضعت الكاميرا بين صخرتين صغيرتين وفوقها صخرة لتحميها، ثم إنها قالت للكاميرا:

- سيكون هذا المشهد الأخير الذي سيراه مَن بعدي، إذا ما نجوتُ سأعترف بكل شيء، وليعدموني بعدها إذا ما أرادو، ولكن على قاريء الأوراق، ومُشاهد الفيلم أن يحكم بنفسه، مَن كان السبب في كل هذا، مَن السبب؟ ما الذي قادنا لكل هذا؟ هل هو خطئي أنا أم خطؤهما؟

الله موجود بالفعل، وأنا ما زلت أؤمن به، ولكنه يتركنا ليرى تصرفاتنا، السيناريو الإلهي هو مَن يحكم في النهاية، لقد كُتب علينا القتال، وكُتب علينا الموت، وعلينا أن نعيش السيناريو بكل حذافيره،

وعلى من يرتجل أن يتحمّل تغيرات المشاهد المتتالية، كان مُقدّرًا لي أن أُشعل الممر، وسأشعله في النهاية، ولكن عندما أكون قد أخذتُ حقي بالقوة، لا بالخوف ولا بالإجبار.

الوداع أيها الكهف،أرجو من المتفرج أن يُساعد على نشر قصّتنا، وأن يُعلم عائلاتنا بمصائرنا، وليسامحني الله.

انتهى.

ثم إنها أخرجت القدّاحة، ونظرت لها ثم أشعلتها، نظرت نظرة أخيرة إلى الكاميرا وابتسمت، ثم وجَّهت يدها إلى الحفر، وانفجر كل شيء.

***

النهاية

- من إحدى قاعات جامعة كامبريدج -

الكلية النفسية

يتوقّف هدير آلة العرض، ثم يُنير أحد ما القاعة الممتلئة بالطلبة، فتتعالى الأصوات في القاعة، فيقول السير نيكولا:

- الهدوء من فضلكم.

ثم يضيف:

- كنت قد بدأت حديثي عن البارانويا، ثم تحدثت عن البقاء، والميثولوجيا والحضارات ومعتقداتها، هل لدى أحد أيُّ سؤال قبل أن أكمل؟

يرفع أحد الطلبة يده في هدوء فيشير له السير بالتحدُّث فيقول:

– وما الذي حدث في النهاية يا دكتور؟

قال بسخرية:

– وأيّ نهاية تتوقع بعد الاحتراق يا ذكي، هل تتوقع أن تأتي جثّة ليلى لتكمل لنا الدرس؟

تمتليء القاعة بالضحكات، ثم يُشير له السير بالجلوس فيقول:

– ما حدث هو القدر بذاته، الدرس الإلهي الذي علينا أن نتعلّمه، وهو نبذ العنصرية، ما حدث يا بني هو أنني كنتُ على رأس هذه العملية لخبرتي العسكرية والنفسية أيضًا، وأنا مَن اخترت العناصر بنفسي، كانت المهمة في صورتها هي تقرير صغير عن أحداث نينوى الأثرية، إنما في مضمونها كنتُ أُريد أن أرى أساس الخِلاف الحضاري بين الثلاث أديان، اليهودية والمسيحية والمسلمة، وكان الدرس النفسي هنا هو دراسة أوجه النرجسية، وتعاملها مع الاختلاف الحضاري بينهم في صورة تعاملات يومية فقط، لم نكن نتوقّع كل هذا.

أشار أحد الطلاب ليسأل ثم قال:

– دكتور، هل كنتم تراقبونهم؟

قال:

– نعم بالفعل، ولكن عندما حدث ما حدث في الكهف لم نكن نراقبهم بالطبع، لم نتوقع أن يهاجمنا التنظيم الإسلامي قط، فنحن كنا

على اتفاق مع الجيش العراقي على أن ندخل ونخرج بتأمينهم، ولكن يبدو أن الجماعات قد باغتتهم.

أشارت طالبة فسألت:

- وكيف عرفتم كل ما حدث داخل الكهف؟

قال، وهو يُشير إلى جهاز العرض:

- ما حدث أننا قد أتتنا إشارة بأنه تم مهاجمة البعثة العلمية، وهناك إخبارية عن قتل الأفراد كلهم،وعندها أرسل الجيش الأمريكي فرقة للتعامل،وتمت السيطرة على المنطقة الجبلية في يومين فقط، وعند تمشيط المنطقة اكتشف الفريق دخانًا يتصاعد من إحدى الثغرات في الجبل، واهتزت المنطقة بالكامل. فاتجهت الفرقة لتجد مخرجًا حديث الصنع محترقًا بالكامل في الجبل، فقامت الجهات بإطفاء الحريق والدخول للبحث،فوجدوا الكاميرا وقد احترقت بالكامل من الخارج، ولكن كارت الحفظ ما زال بخير، ووجدوا أشلاء لامرأةٍ متناثرة هنا وهناك وجثتين محترقتين بالكامل، وقد أتوا لنا بكارت الذاكرة، وعند تحليله تم التوصل إلى الأوراق وكل شيء،وهذا ما أقمنا عليه دراساتنا النفسية بعدها.

أشار أحد الطلبة، وسأل:

- وما نظريتك المبنية على هذا الفيلم سيدي؟

قال:

- ما اسمك؟

قال الطالب:

- فيليب سيدي.

قال:

- الدرس هنا هو العنصرية والعِرقية يا فتى، تخيَّل معي ماذا كان سيحدث لو كانوا تعاونوا منذ البداية باسم الإنسانية؟ يقول أبونا سيجموند فرويد:

- إن النفس البشرية مليئة بالاضطراب والتخيل، وإن الكثيرين الذين يعيشون في أوهام إذا لم تنقذهم العناية الإلهية من أوهامهم ينحدر بهم الطريق إلى الجريمة والجنون.

طبِّق هذا الدرس على كل المشكلات والنزاعات العالمية وستفهم، ماذا سيحدث إذا تعاون اليهود والمسلمون والمسيحيون، كم من الحضارة سيبنون إذا ما ساروا يدًا واحدة تبني وليس مجرد أصابع تعبث هنا وهناك؟! ماذا إذا سارت فلسطين وإسرائيل دولة واحدة؟ ماذا إذا ما سارت سوريا وليبيا ومصر وغيرها دولة واحدة؟ ماذا إذا ما اتحدت أمريكا وروسيا باسم الإنسانية؟!

أترى؟ كان فريقي على بعد خطوات من إنقاذهم، ولو كانوا قد نبذوا خلافاتهم العرقية خارج الكهف لصاروا أحياء الآن، ولكنهم

انجرفوا وراء تعاليم بأسماء دينية، كراهية مصطنعة قد صممها بضعة أشخاص ليصير لهم أتباع ونفوذ، والضعفاء قد صدّقوا واتّبعوهم.

قال أحد الطلبة:

- سيدي نحن نتحدّث هنا عن أكاديميين، دكتورة، وصحفي، وضابط مهم في الجيش، هم ليسوا خِرافًا.

قال السير:

- بل خِراف يا فتى، وهذا ما رأيتموه معنا، بالرغم من التحضّر، والرُّقي الذي ترعرعوا فيه، فقد انجرفوا نحو صراع أدَّى في النهاية إلى مقتلهم، مَن الفائز الأول في هذه المعارك؟ هل يجيبني أحدكم؟

أشارت طالبة، وقالت:

- الموت سيدي.

قال:

- إجابة صحيحة، لا تحصد الكراهية إلا المزيد من الأرواح، الخاسرون هم من يتحاربون وينسون أنهم في البداية بشر مثلهم كسائر البشر، بيرتراند يقول: الحرب لا تُحدِّد مَن هو صاحب الحق، وإنما تحدد مَن تبقى، وهو في وجهة نظري أصح تعبير عما حدث، وسيحدث، إذا ما نسينا أصولنا وأعراقنا، والتهينا عن الحروب الزائفة من التي بلا طائل، سنكون مجتمع اليوتوبيا الذي طالب به كثيرًا

أرسطو، وبهذه الكلمات أنهى المحاضرة، أنتظركم غدًا في تمام العاشرة لنكمل الدرس.

انصرف الجميع إلا الطالب فيليب، انتظر حتى فرغ الكل من الذهاب، ثم اقترب من السير نيكولا.

قال له:

– سيدي أتسمح لي؟

قال له:

– تفضّل يا فيليب.

قال:

– أريد أن أبارك لك لفوزك بجائزة نوبل سيدي، ولإصدار كتابك الأخير أيضًا.

ابتسم السير، وقال:

– أقرأته؟

قال:

– ومن في العالم لم يقرأ "الحب والحرب" سيدي، إنه كتاب ملهم فعلًا، ولكن عندي سؤال، أتسمح؟

قال:

- تفضّل.

قال فيليب:

- أعلم أن ما حدث هو حقيقة، ولكن هل كانت الرحلة فعلًا عسكرية فقط؟

قال:

- ماذا تقصد؟

قال فيليب:

- أقصد أن التفاصيل كانت دقيقة جدًّا، وحالة البارانويا التي أُصيبت بها الدكتورة وحالة الهياج العصبي الذي أُصيب به صامويل، بل حتى يعقوب الجبان، هؤلاء بالمصادفة اجتمعوا؟ لأنهم خبراء؟

نظر لي السير نيكولا، وقال:

- سأُطلعك على السر ولكن عدني أنك لن تتفوه بحرف، وهذا لأني أعرفك يا فيليب.

قال:

- أعدك سيدي.

قال السير نيكولا:

- هؤلاء ما هم إلا مرضى نفسيُّون يا فيليب، كان يتم علاجهم عند أطباء هم تلاميذي في أنحاء العالم، وهم من رشحوهم لي.

قال:

– مرضى؟

قال السير:

– نعم، ليلى كانت تعاني توحُّدًا، وبارانويا زائدة بسبب حادثة أبويها، وصامويل بالرغم من منصبه فهو كان يعالج من حالة الهياج بسبب ما رآه في العراق، أما يعقوب فقد أُصيب بحالة من الخوف اللا مُبرَّ بسبب حادثة اغتصاب في فلسطين، تم هتكُ عِرضه وقت الانتفاضة، ويعاني مشكلاتٍ جمّة.

قال فيليب:

– إذن فقد تم اختيارهم بعناية؟

قال السير:

– نعم، وكله من أجل العلم.

قال فيليب:

– وكانت الحادثة مقدّرة؟

قال السير:

– لا، ولكننا كنا على علمٍ ببنيات التنظيم في مهاجمة نينوى، وكنا نريد فقط اختبار التعاون بينهم وقت الهجوم، ولكن تفاقَمَ الأمر إلى أقصى حدّ، وبالطبع هذا يفسّر لك الأوراق الكثيرة والكاميرا، ولهذا بحثنا عنهم حتى وجدناهم.

قال:

– فهمت الآن، وبالنسبة إلى عرقهم؟

قال السير:

– هذا أجمل ما في الأمر، إنهم من أعراق مختلفة، وليلى أُصيبت بالبارانويا بسبب أن أبويها قتلوا علي يدِ اليهود، وصامويل قُتل عمه بسبب المسلمين، أما يعقوب فاغتصبه الفلسطينيين، وهذا ما جعل الاختبار ممتازًا، ولهذا حصلت على نوبل.

قال فيليب:

– أنت ممتاز يا دكتور، أنا فخور أنك أستاذي.

نظر له السير وابتسم ثم قال:

– لا تتأخر غدًا، في الغد سيكون الدرس الأهم.

قال فيليب:

– عن أي شيء ستتكلم سيدي؟ فأنا كلي شغف.

قال:

– انتظر وسترى.

ثم غادرا معًا.

ذهب السير نيكولا ليحتسي قهوته المعتادة في أحد المقاهي الملاصقة للجامعة، وكان يطالع بعض الجرائد كعادته، فأتى له النادل بصندوق مغلّف وعليه خطاب.. قال السير:

– ما هذا؟ من أتى لك به؟

قال النادل:

– لا أعلم سيدي، ولكن أحدًا ما قد تركه لك، وأنا أوصله فقط.

غادرَ النادل، نظر السير إلى الصندوق بحوذته ثم أخرج الخطاب وقام بفتحه، قرأ السير الخطاب فتبدّلت ملامح، كان مكتوبًا في الخطاب:

" مفاجأة أيها السير نيكولا، إذا ما تُوفي الكل، فسأعود لأنتقم لهم، وهذه هدية بسيطة أرجو أن تنال إعجابك، المرضى ليسوا للهو ولا الدراسة سيدي.

ملحوظة، لن أحضر الدرس غدًا، وأنت أيضًا لن تحضره.

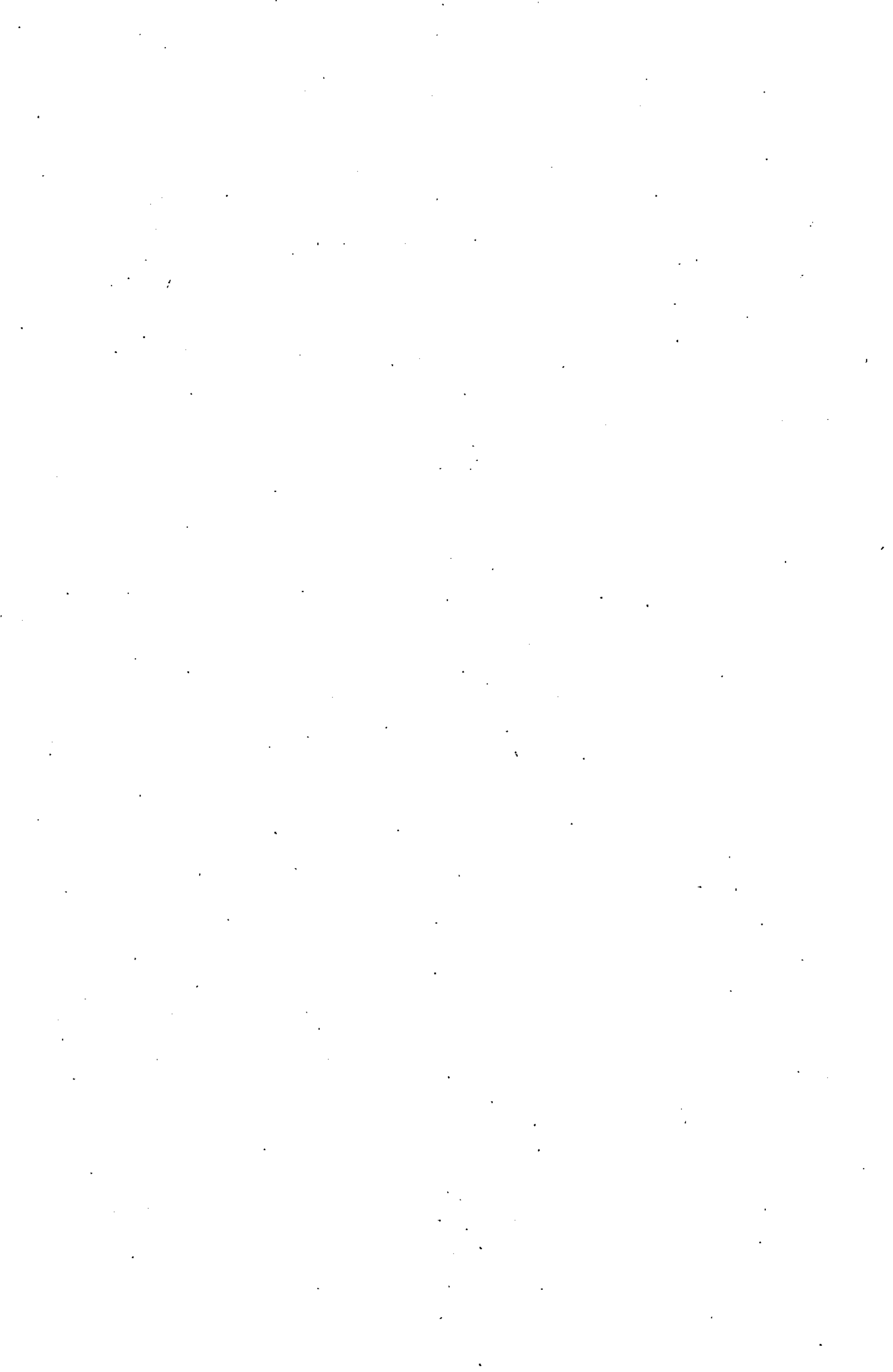
فقد تعلّمت منك معنى أن أكون من البشر، لن أحارب، ولن أنتقم ممن قتل أخي، ويتّم ابنته، وسارت زوجته أرملة، سأكون متحضّرًا، ولتأخذ العدالة مجراها.

ملحوظة: اشرب قهوتك سريعًا، فالشرطة في طريقها إليك.

إمضاء، فيليب فرانكلين."

فتح الصندوق سريعًا فوجد شريط تسجيل، وشارة صامويل العسكرية، وسكينًا ملطّخًا بالدماء، ومكتوب في قاع الصندوق:

الموتُ مصيرُ مَن يلهو بمصائر البشر.



للتواصل مع الكاتب

https://www.facebook.com/merooo245



أصحاب العهد

قلت: أُقسم بربي وبمحمد عليه الصلاة والسلام، أن أتعاون على إخراجنا، وألا أبغضَ أيًا منكم، وأن أُحافظ على أرواحكم كحفاظي على روحي، وأن نظل فريقًا واحدًا تجمعنا آدميتنا، والله على ما أقول شهيد.

همهم يعقوب ثم قال صامويل: بسم الأب والابن والروح القدس، بحق تجسد الرب في الناسوت، بحقّ الصليب المقدس، أن أتعاون على إخراجنا، وإلا أبغض أيًا منكم، وأن أُحافظ على أرواحكم كحفاظي على روحي، وأن نظل فريقًا واحدًا تجمعنا آدميتنا، آمين.

قال يعقوب: أشهد يا الوهيم، أن أتعاون على إخراجنا، وألا أبغضَ أيًا منكم، وأن أُحافظ على أرواحكم كحفاظي على روحي، وأن نظل فريقًا واحدًا تجمعنا آدميتنا، وإن كنتُ كاذبًا في قسمي، فلتنزل اللعنة على سُلالتي ولأتحسس طريقي بين الحوائط كالأعمى، ثم لتنشق الأرض وتبتلعني.





محمد أمير

صدر له:

دماء مقدسة .. رواية

تحت الطبع:

رواية " مانجو ".





دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر

E-mail : daroktob1@yahoo.com

01144552557

Cover by #ahz_art